

القسم السادس الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية ٢

عصر الاستقلال الذاتى

الحسن بن علي بن ابي الحسين

جاء الحسن والياً من قبل المنصور ، يخال بين بردتى فضل وشم ، وكان معه اسطول يحمل جنداً ومتاعاً ، فنزل مدينة مازرة ، سنة ٣٣٥ فلم يلقه احد هنالك ، ولما جن الليل ، جاءت جماعة من كتامة ومن وجوه الجند الافريقى وأعلموه انهم لم يجسروا على لقائه نهراً خوفاً من إنباء الطبرى ، ورجال الثورة المتقدمة ضد عطايف وضد الحكم الفاطمى ، وضد سياسة الشدة والارهاب ، وأوصوه بالحدز الشديد ايغاراً لصدده وحثاً له على الاستمرار في سياسة البطش .

لكن الحسن كان غير الرجال السابقين وقد جاء صقلية بحمل فكرة صالحة ويعتزم سلوك سياسة رشيدة ضارباً صفحاً عن كل ما تقدم من أمر الفتن والاضطراب .

سار في جنده وموكبه ودخل بالرمة العاصمة ولم يكن آل الطبرى قد اتصلوا برسائل من وفدهم بالمهدية لكنهم لم يجسروا على مقاومة الحسن وراوا التريث والتمهل إلى أن يظهر امره وتتجلى سياسته .

العدل أساس الملك — رأى آل الطبرى يومئذ الالتجاء إلى مكيدة تمكنهم

من سبر غور الوالى وتجعل لهم الحجة فى اعلان الانتفاض عليه واثارة العامة والذهاب ضده فاتفق السيد اسماعيل زعيم آل الطبرى مع أحد غلمانه واستدرج الى داره

احد عبید الحسن ومهد له سبیل الاختلاء بجویریة من جواریه ثم اخذت اصوات الصراخ والاستغاثة ترتفع من سائر اطراف قصر آل الطبری واسماعیل یزجربان عبداً للوالی انتهک حرمة منزله واعتدى على حرمة فاجتمع الناس وقبضوا على العبد وساروا به الى قصر الولاية امام الحسن بن علي وكان اسماعیل یعتقد ان الامیر لا یتنازل لسماع شکاته او الاقتصاص من عبده وبذلك یتمكن من اذارة العامة ضده لكن الامیر الحسن اوقف عبده موقف الاتهام على مرأى ومسمع من الناس واعترف العبد بما اتموه به فاصدر الامیر امره باعدامه ردعاً لامثاله ممن تسول لهم انفسهم الاعتداء على الحرمات فأكبر الناس منه ذلك الانصاف ومالت قلوبهم اليه وانقلبت مکيدة ابن الطبری ضد مدبرها

ثم ان الخليفة المنصور قبض على من عنده من آل الطبری بافریقیا واصدر امره للحسن بان یقبض على بقایاهم فی صقلیة ویرسل بهم اليه ففعل بعد ان استدعاهم لولاية یستانه نازعا سلاحهم مفرقا عنهم انصارهم وارسل بهم الى افریقیا حیث اسكنهم المنصور بعض الجهات وابعدهم نهائياً من مکر الفتنة .

العودة للجهاد وفتح طبرمین — اطمأنت النفوس للحسن والتفت القلوب حوله

اذ راوا فيه مثال العدل والنزاهة والخلق الکریم وراوا فيه طی صفحة الماضی المؤلم ماضی ولالة الجور والتکبیل والانتقام وفتح صفحة جديدة تربط حاضر صقلیة ومستقبلها بماضیها الجلیل .

ورأى الروم ذلك وایقنوا ان المسلمين ان جمعوا امرهم ووحّدوا کلماتهم فلا نتیجة لذلك الا عودتهم الظافرة لمیدان الجهاد ، فبادر المسيحيون بدفع اموال الجزية المتخلفة لديهم عن ثلاثة اعوام وقد تقاعسوا عن دفعها عندما رأوا ما حل بالمسلمین من خلاف وشقاق وفتنة دهاء .

في سنة ٣٥١ هاجم المسلمون قلعة طبرمين التي كانت تحمل آمال الروم القسطنطينيين في شرق الجزيرة ، وكانت ممتعة على المسلمين بما امدها به الروم ؛ وكان المسلمون يومئذ تحت قيادة الامير احمد بن الامير الحسن وقد اشركه ابوه معه في الحكم واعده ليخلفه من بعده ؛ ودام حصار طبرمين سبعة اشهر ثم اقتحمها المسلمون بين اصوات التهليل والتكبير ، بعد ان قطعوا عنها الماء وافتتحوها ؛ واطلق عليها القائد احمد اسم « المعزية » نسبة للخليفة المعز الفاطمي .

ثم توجه المسلمون تحت قيادة القائد الكبير الحسن بن عمار ، ينصبون الحصار على مدينة رمطة Rametta جنوب طبرمين محطمين بذلك آمال النصرانية في شرق الجزيرة ، وكان الروم قد حصنوا المدينة تحصينا منيعا فاشتد المسلمون في حصارها ونصب الحسن بن عمار حولها المجانيق والفرادات فالحق بالمدافعين عنها اضرارا جسيمة الى ان افتحمها عليهم عنوة وافتتحها يوم الخميس آخر رجب سنة ٣٥٢ (٩٦٥) مسجد ريو — كانت جزيرة ريو ، من جزر النصرانية يختلف اليها المسلمون

ويستقرون فيها لآمور تجارتهم الواسعة او يقيمون فيها اثناء اسفارهم ؛ فارسل الامير الحسن بن علي بنائيه ورجال الفن واخط في تلك الجزيرة مسجدا فخما في احد اركانها مأذنة عالية وتعاقد مع النصارى على احترام الحرية الدينية وتهدوا له انهم لن يمنعوا المسلمين من غشيان المسجد وتوعدهم الامير بانهم ان حالوا دون المسلمين ومسجدهم فانه يقابل العمل بمثله ، ويحول بين المسيحيين وكنائسهم في صقلية وافريقيا ؛ واشترط عليهم ان المسجد حرم يحمي من التجأ اليه مثل سائر معاهد الدين في ذلك العصر ، واحترم النصارى العهد .

محاولات الروم في جنوب ايطاليا — في هاتيك الاثناء والمسلمون يستعدون

للقضاء نهائيا على آخر آمال الروم بقلك الديار ، ويستعدون للقضاء على الخطر النرماني الناشيء ، كان بلاط الروم في القسطنطينية يشعر بمقدار الكارثة التي

اصابته ويستعد لاسترجاع مكانته الحربية وممته السياسية وقيمته الدينية المسيحية فجهز الامبراطور اسطولا عتيداً حمله جنداً غفيرا وسلاحاً وفيراً وارسل به نحو الجنوب الطلياني يحاول استخلاصه من ايدي المسلمين .

علم الحسن بن علي بالامر ، فارسل الى المهدي يستنجد بها فجاءه الاسطول الفاطمي بحمل سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل ، واستعد الفريقان للنزال والكفاح وكان ذلك سنة ٣٣٦ (٩٤٨) فالتقى الجمعان برأ وبحراً ، واندحر الروم فرجعوا على اعقابهم خاسئين . وشيد الحسن بن علي مسجداً بمدينة رجيو (Réggio) في قلورية توطيداً لحكم المسلمين وتثبيتاً له ، واجبر الروم المقيمين بمدينة اوترننتة على دفع الجزية .

بعد سبعة اعوام من ذلك سنة ٣٤٣ ، اعاد الروم الكرة على المسلمين في الجنوب الطلياني ، وجاء بطريقهم ارجر بوس على رأس عمارة بحرية قوية فنصب الحصار على مدينة نابولي ، وكانت عاصمة امارة مسيحية مستقلة ، وحليفة وفية لمسلمي صقلية ؛ وكان الروم حاولوا يومئذ الانتقام منها من أجل ذلك .

سار المسلمون تحت قيادة الامير عمار بن علي اخي الامير الحسن وقد كان يتولى امر المسلمين في اروبا ، فجمعوا جهودهم الى جهود اهل نابولي ، وتمكنوا من دحر اسطول الروم ، وردوا المهاجمين على اعقابهم مرة اخرى .

لكن الروم نزلوا الارض في بلاد قلورية ، محاولين قطع الصلة بين صقلية والبلاد الاروبية ، فتمكنوا من بعض الجهات ، واحتلوا مدينة رجيو وهدموا مسجداً لحسن بها ايذاناً بزوال سلطة المسلمين ؛ وغلوا في التعصب المسيحي .

جمع الامير الحسن قوته ، وسار الى قلورية يضم جهوده لجهود اخيه عمار فالتقى المسلمون بالروم في وقائع عديدة ، واعادوا احتلال رجيو والتقوا باسطول الروم امام مرسى اوترننتة فحطموه ودحروا بقاياها واضطر الروم للانسحاب وطلب المهادنة

وذلك سنة ٣٤٨ (٩٦٠)

الانتصار الاكبر في معركة الحجاز — كان الفريقان يعلمان ان القتال بينهما لم

ينته بعد وكانا يستعدان للملحمة الكبرى الحاسمة ويعدان لها العدة ويعلمان ان
نتيجتها ستكون اما خسارة صقلية وجنوب ايطاليا نهائياً وانقطاع امل الروم بصفة
بارة هنالك ؛ او تقلص ظل المسلمين وانهيار سلطانهم نهائياً في البلاد الاروبية
وجزيرة صقلية .

ولم يضع الروم وقتهم سدى فقد جهز الامبراطور اسطولا لم يجهز مثله من قبل
قوة ومنعة وعدداً وشحنة باربعين الفاً من اشداء المقاتلين تحت امره ابن اخيه مانويل
وامير البحر نيستاس ؛ ونزل الروم ارض صقلية في ناحية المضيق الذى يفصل بينها
وبين ايطاليا ويسميه العرب الحجاز وكان الجند الرومى مؤلفاً من جماعات الاغريق
والحموس و لارمن والروس في قوة لم تطأ ارض الجزيرة مثلها من قبل .
وضع المسلمون قوتهم وكانت قليلة العدد بالنسبة لقوة الروم تحت امره القائد
الحسن بن عمار وسار هذا على راس المجاهدين المسلمين يقف في طريق الجند الرومى
ويحول بينه وبين الوصول الى رمطة .

استعد الحسن المعركة فوضع جنداً في مضيق بنقش وجنداً آخر في مضيق
دمنش ، وهما طريقان جليان وعران ؛ وعلم قائد الروم مانويل بذلك ، فارسل
فرقتين من الجند قويتين لتقتحم كل واحدة منهما مضيقاً وتنتزع من ايدي المسلمين
طريق ورود النجدة والمدد .

التقى الجمعان وزحف المسيحيون في ستة مواكب فاحاطوا بالمسلمين من كل
ناحية نظراً لكثرة عدد الروم وقلة عدد المسلمين فجاهد المسلمون جهاد المستميت
وتغلب عليهم الروم فتقهقروا حتى وصلوا خيامهم وايقن الروم انهم فازوا وغلبوا
واستولوا على معسكر المسلمين .

لكن هنالك قوة يصعب التغلب عليها ويستحيل قهرها الا وهي قوة الروح
قوة الايمان ، قوة العزيمة ؛ تلك قوة تستطيع ان تغلب وان تتغلب ، وتستطيع ان
تفرض ارادتها وتنتصر اذا ما خارت قوى المادة وضعفت .

رأى المسلمون انفسهم نقطة ضعيفة وسط لجة من قوى الروم وعلّموا ان هم
خسروا المعركة فصقلية كلها قد ضاعت ، ومسلموها اصبحوا عبيدا ومساجدها
صارت محطة وعمرانها امسى خرابا ؛ ثم علموا ان النصر لمن صبر الساعة الاخيرة
فتشجعوا بعد وهن ؛ وتغلبوا على ما اصابهم من ضعف وروعة ؛ وجمع الحسن
ابن عمار رضي الله عنه جماعة صادقة من المسلمين وقال : اللهم ان بني آدم قد
اسلموني ، فلا تسلمني . وحمل معهم حملة الابطال على جماعة الروم وتبعه رجال
المسلمين من كل صوب وراى مانويل ان رجال الروم قد اصابتهم الدهشة من
هذه الصدمة التي لم تكن منتظرة ، فصاح بهم : اين افتخاركم بين يدي الامبراطور
واين ما ضمنتم له في هذه الشرذمة القليلة ؟ واشتدت المعركة وسالت الدماء ،
وتناثرت الاشلاء وتساقطت الجثث ، وتغلب المسلمون القليلون على الروم الكثيرين
واقترح احد مجاهدى المسلمين صفوف الروم فوصل الى القائد مانويل وارداه قتيلا
واذ كان النصارى يقاسون كربا ثقيلا والمسلمون يمعنون فيهم قتلا واسرا ،
ثارت زوبعة شديدة ورعد وبرق ، فاشتد بهم الرعب والفرع واصبحوا لا يفكرون
الا في النجاة بالنفس ، وصدق الله تعالى قوله : (كم من فئة قليلة غلبت فئة
كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) .

انهزم الروم لا يلوون على شيء ، فمالوا في انهمامهم الى جهة ظنوها سهلة وطيفة
توصلهم الى ساحل البحر فاذا هي جهة وعرة صعبة المسالك ادت بهم الى جرف
حفير عظيم فسقط الكثير منهم فيه ؛ وامسوا هنالك يقتل بعضهم بعضا والمسلمون
ينهاون عليهم ضربا بالسهام والسيوف ، فما انقضى اليوم حتى ترك الروم نحو العشرة

آلاف قتيل على اديم الارض ؛ وانهزمت بقاياهم شريفة حتى وصلت الاسط-ول
فنجت بنفسها فيه ، وباء المسلمون بنصر عظيم في معركة من اروغ واشد واغرب
معارك القرون الوسطى ، وكان ذلك يوم عرفة من سنة ٣٥٤ (٢٤ اكتوبر ٩٦٥)
وجاء المسلمون بالبشرى الى بالرمة ، والامير احمد ابن الحسن يسوق الغنائم
والاسلاب والاسرى ، وخرج الامير الحسن بن علي للقاء ابنه مهنتا المسلمين
بانتصارهم وفوزهم ، واصابته حمى من شدة تأثره وسروره في ذلك اليوم العظيم ،
فمات رحمه الله من اثر ذلك بعد ولاية دامت نحو العشرين عاما ، كانت غرة في
جبين الدهر ، وآية من آيات المسلمين اظهروا فيها ما يستطيعون القيام به من
جلال الاعمال في الحروب والسياسة والعمران ، ان هم وحدوا جهودهم وجمعوا
كلماتهم ووجهوا همهم للقيام بالرسالة الكبرى التي اختارهم الله لادائها في تلك العصور
الوحشية لاجراج الناس من الظلمات الى النور .

احمد بن الحسن بن علي

اجم الناس امرهم على توليته وحده بعد ابيه ، وقد كان كما علمنا مشار كاله
في الحكم والتدبير والحروب طيلة حياته .

الاجهاز على الروم — لم يضم الوقت سدى ، ولم يرد ترك الروم يجمعون

من جديد قلوبهم لاعادة الكرة بعد نكبتهم الكبرى ، فبادر بمهاجتهم بخياله ورجله
وقاجأهم في المعادل التي التجأوا اليها ، فاسترجع رمطة واسر من كان بها من بقاياهم
ثم اجتاز البحر مسرعا الى قلورية ، فاحرق في رجب اسطول الامبراطور واسر امير
البحر ينساتاس ، وارسل به مع عدد جسيم من عظماء الروم الماسوريين الى بلاط
الخليفة في المهديّة ، ويقول بعض المؤرخين ان من جملة الغنائم التي وجه بها الى
المهديّة سيف هندي بديم الصنم منقوش عليه : « سيف هندي ، وزنه مائة وسبعون
مثقالا طالما ضرب به بين يدي رسول الله »

الصلح — اذعن الروم للامر المقضي ، وعلموا انهم لن ينالوا من مسلمي صقلية منالا ، وان آمالهم خابت هنالك بصفة نهائية ، فعزموا منذ تلك الساعة على عدم التدخل مطلقا في امور الجزيرة ، وارسلوا وفداً من القسطنطينية حل بمدينة المهديّة وتقدم امام الخليفة المعز ، يطلب الصلح ويعلن جهاراً عزمهم على عدم العودة ، ويقدم للخليفة ولرجال بلاطه واعيان دولته هدايا نفيسة ، وتعاقد الجانبان على ان لا يعود الروم مطلقا لساحة صقلية ، ومقابل ذلك يخلى المسلمون طبرمين ورمطة لكي يسكنها المسيحيون من نصارى الجزيرة .

كانت هذه غلطة سياسية كبرى ارتكبها المعز ورجال شوراه ، لانها مكنت النصارى من شرق الجزيرة بعدما اخرجتهم منه شدة شكيمة المسلمين ، ولان تلك البقاع اصبحت فيما بعد ؛ كما سيمر بك ، مركزاً من مراكز جهاد المسيحية ضد الاسلام بهاتيك الديار على يد النرمان .

اصدر الخليفة امره المطاع للامير احمد بن الحسن ؛ باخلاء مدينتي رمطة وطبرمين تنفيذاً للمعاهدة ، فاغتم المسلمون من ذلك وتألّموا ألماً عظيماً واذعن الامير احمد للامر ، الا انه عمد قبل ذلك لتخفيف وقع تلك الغلطة فارسل اخاه ابا القاسم صحبة عمه جعفر على رأس جماعة من المسلمين ، فاخرجوا من المدينتين كل السكان واعملوا فيها المعاول والفؤوس فلم يتركوا فيها حجراً على حجر واحرقوا بالنار هاتيك الانقاض فلم يتركوا للمسيحيين تنفيذاً للمعاهدة الا ركاباً من خراب ورماد .

ختان اطفال الجزيرة — ساد الجزيرة عهد فرح وسرور وامن اثر ذلك النصر العظيم واقبل الناس على اعمالهم العمرانية وانشأ آتهم يصلحون ما افسدته ايدي الفتن السالفة وما اوقفهم سير الحروب والملاحم عن انجازه .

ومن اغرب ما حدث هاتيك الايام قبيل وقعة الحجاز مما يدل على مبلغ ما

تمتعت به الجزيرة من سكون وامن وعافية اثر ولاية الحسن بن علي المباركة الطويلة وابنه وشريكه في الحكم احمد بن الحسن وورد الامر من الخليفة المعز في المهديـة بالاحتفال في جميع جهات الجزيرة بختان سائر اولاد المسلمين الذين هم في سن الختان وذلك في نفس اليوم الذي يحتفل فيه المعز في المهديـة بتطهير اولاده .

احصى الامير احمد الاطفال الذين يجب ختانهم تنفيذاً لرغبة الخليفة فكانوا خمسة عشر الفا وابتدأ الامير بتطهير اولاده واخوته في مستهل شهر المولد النبوي من سنة ٣٥١ ثم ختن اولاد الخاصة والعامة ووزعت الصلاة على سائر المختين هدية من الخليفة الذي ارسل لصقلية بتلك المناسبة لتوزع على الاطفال مائة الف درهم وخمسين حملاً من الهدايا .

أبو القاسم علي

في سنة ٣٥٨ استقدم الخليفة المعز للمهديـة امير صقلية احمد بن الحسن واولاده قيادة اساطيل الدولة لما أظهره من معرفة بفنون قتالها ومهارة في قيادتها فارتحل الامير احمد من صقلية آخذاً معه عائلته وامواله ومناعه وترك الامر فيها لاختيه ابي القاسم علي بن الحسن .

وكان هذا الامير رحمه الله من خيرة امراء الجزيرة من بني الحسن عادلاً رحيماً شديداً في الحق مواسياً للفقراء والباشرين قال ابن خلدون وكان عادلاً حسن السيرة وقال عنه ابن الاثير وكان عظيم الصدقة ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ولا عقاراً فانه كان قد وقف جميع املاكه على الفقراء وارباب البر واستمرت ولايته السعيدة ١٣ سنة .

تدخل النرمان — في هاتيك الاثناء والمسلمون في صقلية يجمعون شتاتهم ويرأبون صدعهم وقد امنوا رجوع الروم محاربين بعد ان دحروهم مرات عديدة خلال عشرات السنين كان رجال النرمان قد وطدوا عزمهم على الاستقرار بهاتيك النواحي

ووجدوا فيها المرتع الخصب وعلوموا انهم لامحالة يتمكنون منها بعد جمود ومضى وقت. ابتداء النرمان اعمالهم بنواحي ايطاليا فاحتلوا مدن ابرنديزي وطارنطة التي كانت مركزاً لامارة اسلامية مستقلة ثم استولوا على جزيرة كرسكا واتخذوا منها مركزاً لاعمالهم ضد المسلمين ، وما كان النرمان يحاربون المسلمين وحدهم بل كانوا يحاربون الجميع على السواء ويريدون ان يبتنوا لانفسهم هنالك ملكاً على حساب المسلمين والباباوية والامارات الطليانية ، وعلى حساب المسيحيين الذين جاءوا يزعمون انقاذهم من براثن المسلمين ، ثم هاجموا مدينة رومة نفسها .

رسالة البابا للامبراطور — ارسل البابا ليون التاسع رسالة صور فيها حقيقة

الامة النرمانية الى امبراطور القسطنطينية يستنجد به هؤلاء الافوام الوحوش ومما يقوله في رسالته تلك :

« لقد انظر قلبي اسي مما قصه علي مندوبوا ولدي ارجيروس ؛ فيما يتعلق بفوضى الامة النرمانية وخبثها وسقوطها وازدراءها بالدين ذرية بزت ذرية الذين لا يؤمنون ، لذلك قد عقدت العزم على تخليص ايطاليا من جبروت هؤلاء الاجانب الذين اندفعوا على البلاد متكابين لا يحترمون شيئاً ويذبحون المسيحيين بعد اذاقتهم انواعاً من العذاب الاليم ، ثم انهم ليست لهم اي عاطفة انسانية ، فهم لا يميزون بين كبير ولا صغير ولا بين رجل وامرأة ، وانهم ليتنبهون الكنائس المقدسة ثم يحطمونها ويوقدون فيها النيران ولطالما ملت عليهم وشنت باعمالهم وانذرتهم وحذرتهم عقاب الله ونقمته لكن صدق الحكيم الذي قال : ان من تخلى عنه الله بقي سرمداً في الشقاء ؛ وان يرجع الكلام العقل الى المجانين . »

ولم يتلق البابا جواباً من الامبراطور الذي ترك نهائياً امر صقلية وايطاليا ، فاستنجد بالالمانيين الا ان اسقفهم اشار عليه بعدم محاربة رجال ينتسبون الى المسيح فما وسم البابا الاجم جند باسمه وتحت رايته وحارب النرمانيين فانخذلت جموعه ،

وانكسر ووقع بنفسه اسيراً بين ايديهم ، فتذلل لهم واستغفر ؛ ورفع عنهم حكمه الذى اصدره بكفرهم ؛ وباركهم فى جهادهم ؛ لكنهم رغم كل ذلك ابقوه اسيراً عندهم عاما كاملا الى ان افتدى نفسه منهم بدفع جعل ذريع .

قال قوسطاف لوبون فى تاريخه الشهير «مدنيات العرب» عن هذه الفترة من فظائم الترمان ومقابلة رجال الكنيسة لهم بالمثل مانصه :

« واستمر الترمان على اعمالهم اذا ما تمكنوا من كنيسة انتهبوها ثم ذبحوا كل رهبانها ليامنوا عاقبة شكواهم وكان الرهبان يقابلون اعمال الترمان بمثلها اذا ما تمكنوا منهم واليك وثيقة عثر عليها مسيو ابريمودرى ، فى خزائن دير جيل كاسان وهي تعطيك صورة صادقة لاعادات ذلك الزمن :

« ذات يوم جاء الكونت رودولف ومعه خمسة عشر من رجال الترمان لكنيسة جبل كاسين قتر كوا عند بابها اسلحتهم وخيولهم حسب العادة المألوفة ودخلوا لاداء الصلاة لكنهم لم يحسنوا اختيار الوقت اذ بينما كانوا جاثين على الركب امام مذبح القديس بونوا اوصد رهبان الكنيسة ابوابها واستحوذوا على اسلحة المصلين وخيولهم ، ثم دقوا اجراس الفزع والاستنجد فاجتمع عليهم الناس من اجوار الكنيسة وهاجموا الترمانيين الذين لم يكن لهم بين ايديهم الا المسابح ، ثم انهم حاولوا عبثاً تذكر المهاجمين بحرمة الكنائس ، وحاولوا كذلك عبثاً اقناعهم بالمرجات من الايمان انهم ما جاءوا الا قصد التبتل والعبادة ومصالحة رجال الكنيسة فان رجال الدين كانوا قد وجدوا الفرصة المناسبة فاغتمروها وقتلوا خمسة عشر رجلا عن اخرهم ، ولم ينج الا الكونت رودولف وحده ، اذ قد حماه الدير وما اطلق سراحه الا بعد ما ارجع للرهبان كامل اموال وذخائر الدير التى كان قد انتهبها هو ورجاله من قبل »

نتيجة التدخل الترماني — من نكد الدنيا على مسلمى صقلية ، انهم ما كادوا يجمعون

امرهم حول استقلال داخلي واسع النطاق ، ويتولى امر الدولة فيهم رجال كرام من آل الحسن بن علي ، يتوارثون الامارة و يصونون مركزها ولو الى حين من مطامع الطامعين وعبت العابثين ، وما كاد ينتهى تهديد الروم وتنفق نهائيا حملاتهم القوية العنيفة المتوالية ، منذ قرن ونصف القرن ، ما كاد يتم كل ذلك بعد طول الجهاد وشديد البلاء حتى كان المسلمون يواجهون خطراً اكبر من هاتيك الاخطار السالفة ويقابلون عدواً اشد عنفاً واقوى ساعداً وافظع اعمالاً من اعداء الخارج والداخل مجتمعين ، ذلك هو الخطر النرمانى الذى ما زال بتلك الجزيرة حتى انهمك قواها واسقطها مجندلة تحت مخالبه المفترسة .

فكانت سائر ايام الدولة الحسنية بصقلية ، انقضت الى جانب اعمال باهرة في ميدان العمران بالداخل ، فى حرب مستمرة عنيفة متوالية مع رجال النرمان المغيرين وقبل ان ندرس تفاصيل هذه الحروب والمعام في الصفحات التالية نرى ان نسجل حكماً اصدره على هذه الفترة المؤلمة وعلى اعمال النرمان فيها المؤرخ الاكبر الدكتور قوسطاف لوبون حيث قال :

«أخذ هؤلاء المدافعون عن الدين المسيحي ، يتفانون في اعمال السلب والنهب سعياً وراء الثروة ، اكثر من تفانيهم في الدفاع عن الدين و كانوا ينتهبون ارزاق اليونانيين والاطليانيين والمسلمين بقسوة وشراسة متساوية فبقيت صقلية وبلاد ايطاليا المجاورة لها مدة خمسين عاماً اي مدة الفتح ، تعتبر فى نظر هؤلاء المدافعين عن الدين المسيحي ، بلاداً وهبها الله لهم كي يكتسبوا فيها الثروة والغنى بكامل السهولة والبساطة .

«وما كان لاعمال هؤلاء المدافعين عن المسيحية من نتيجة ، الا خراب الجزيرة بصفة سريعة ، حتى ادرك اهلها (المسيحيون) ان صداقة فرسان النرمان لهم كانت اقل وطأة عليهم من عداوة المسلمين »

الفاطميون بمصر — لم تكن الدولة الفاطمية التي درجت بين احضان كتامة بارض المغرب لتكتفي بما نالته من عزة وسلطان في بلاد الشمال الافريقي، حتى حدود برقة، بل كانت ترمي بانظارها الطامعة صوب بلاد الشرق، تريد ان تقيم على انقاض الخلافة العباسية الواهية، وعلى انقاض الدويلات الاسلامية التي صيرت الشرق الاسلامي رفعة شطرنج بائسة دولة شيعية علوية تضم تحت لوائها ما فرق امره بنو العباس بضعفهم وتخاذلهم وتقلب الموالي والدخلاء على دولتهم. كيف كان العالم الاسلامي والعربي يومئذ، والحرب الصليبية الاولى تتقد في صقلية وابطاليا نيرانها، والحرب الصليبية الثانية التي يدعوها المؤرخون غلطا الاولى تختمر في افكار رجال التعصب المسيحي؟

كانت بغداد واكثر بلاد العراق وفارس تحت حكم دولة بنى بويه التركمانيين الذين لم يتركوا للخلافة الا الاسم وجلال اللقب؛ وكانت مصر واكثر بلاد الشام في يد بنى الاخشيد، والموصل وديار بكر، في يد بنى حمدان؛ وخراسان وبلاد التركمان وراء النهر في يد بنى سامان، وطبرستان وجرجان في يد ملوك الترك الديلم، والبحرين واليمامة والكثير من جزيرة العرب في يد القرامطة. اما العرب الاسلامي فقد كان زاهراً يانعا في الاندلس، تحت سلطان الامويين؛ يواجه الحملات المسيحية في ذلك العهد بجهوده الخاصة (١)

(١) كان يتولى الخلافة يومئذ بالاندلس الحاكم بن عبد الرحمان الناصر؛ وبلغت الحضارة في عصره شأوا بعيدا، وقد كان مغرما بجمع الكتب فارسل النساخين لكل بلاد كي ينقلوا له كل المؤلفات الحديثة فتوفر له عدد في مكتبته لم يتوفر مثله لملك من قبل وجعلها مكتبة عامة في قصر مروان، ولها خدمة وقيمون وام قرطبة جمع غفير من الادباء والعلماء ورجال الفن من سائر الاصقاع، وبلغت عندئذ مدينة الاندلس الاسلامية اوج عزها ومنتهى ازدهارها.

رأى المعز لدين الله الفاطمي ان ساعة الضربة الحازمة قد آتت ، فارسل قائده جوهر الصقلي او الصقلي على رأس جند عتيد من المغاربة ، وقد كان اهل مصر راسلوا المعز ورغبوه في فتحها ونصب سلطانه عليها تخلصا من مظالم بني الاخشيد والاضطرابات المتوالية فخط جوهر اقاله تجاه مدينة القسطنطينية ففتح له اهلها الابواب ودخل مصر دون قتال ولا عناء ، وذلك في رمضان سنة ٣٥٨ ، فخطب في مسجد عمر بن العاص للخليفة المعز ؛ ودانت له سائر الناس ، ثم سير القائد البربري جعفر ابن فلاح الكنتامي ، فاجتاز الى ارض الشام ومعه جند عتيد فافتتحها وخطب فيها للمعز واصبحت الدولة الفاطمية تمتد من ساحل المحيط الاطلسي الى ضفاف الفرات .

ثم اختط جوهر الصقلي مدينة القاهرة المعزية ، (وانما دعاها القاهرة لانه وضع اسمها عند توسط كوكب المريخ المعروف عند العرب بالكوكب القاهر) فابتنى فيها الدور والقصور ، واسس الجامع الازهر الشريف سنة ٣٥٩ ، وانته سنة ٣٦١ ثم سار المعز ومعه حاشيته ورجال دولته والقناطير المقنطرة من امواله فدخل مدينة القاهرة في رمضان سنة ٣٦١ ؛ وانخذها مقراً للخلافة الفاطميين العبيديين ؛ حيث مكثت هنالك الى ان انقضت ايامها سنة ٥٦٧ ، بموت العاضد لدين الله وقيام الدولة الايوبية على يد بطل الاسلام الخالد الذكر صلاح الدين الايوبي الكردي .

كان انتقال مركز الدولة من المهدية الى القاهرة ، حدثاً من اكبر الاحداث في تاريخ صقلية الاسلامية حيث ان الخليفة قد عين لولاية المغرب احد رجاله المعدودين هو الامير يوسف بولاقين بن زيري بن مناد ؛ رأس قبائل صنهاجة البربرية العتيقة ؛ ولم يجعل له سلطة فعلية على صقلية ، فبقيت الجزيرة تابعة رسمياً لمركز الخلافة بالقاهرة البعيدة الناضرة لآفاق اخرى ؛ انما كانت مستقلة بصفة فعلية تحت امرة الملوك من بني الحسن ابن علي ؛ وكان ذلك من جملة اسباب

تدهور الحكم الاسلامي ، اذ كانت دولة صنهاجة مستقلة بتوطيد ملكها وتوسيع
عمرانها وتدعيم مدينتها التي بلغت اوج منعها وعلاها ايام المعز ابن باديس وكانت
دولة الفاطميين في القاهرة تنظر الى الشرق ولا تكاد تنظر الى الغرب ؛ وبذلك
خلا الجو لوحوش النرمان يفترسون كما شاءوا مسلمي الجزيرة حتى اذا ارادت
دولة صنهاجة امدادهم وانقاذهم كان الخطب قد اتسع على الراقع ، وتدهورت
الدولتان معا ؛ دولة صقلية على يد النرمان ودولة صنهاجة على يد الاعراب من بني
هلال وسليم .

ولنرجع الآن — بعد هذين التمهيدين — لدولة ابي القاسم علي ، المعروف
بالشهيد ، ولنسجل في هذه الصفحات اعمالها :

استمرار الفتح — في سنة ٣٦٥ (٩٦٨) سار الامير ومعه جماعة من العلماء
وكبار القوم على رأس قوة عتيقة لمنازلة مدينة مسينا التي كان العدو قد اتخذها
مركزا لاعماله ضد المسلمين ، فنصب الحصار على تلك المدينة الى ان ضاق اهلها
ذرا فخرجوا يسألونه الامان ويعلنون الطاعة فاجابهم للصاح رحمة بهم وتقاضى منهم
مال الجزية .

ثم سار يوالي فتح ما استولى عليه الفرنج من ارض الجزيرة وقلورية فافتتح
مدينة اغاثة Santa Agata وغنم جميع ما اعده المسيحيون فيها .

ثم امر سنة ٣٦٦ بتجديد بناء مدينة رومطة ، وقد كان حطمها الامير احمد بن
الحسين ، كيلا تكون مركزاً للمسيحية ، وفي تلك السنة سار على راس المسلمين الى
مدينة طارنطة في جنوب ايطاليا ، وقد اتخذها النرمان مركزاً لاعمالهم وقرصنتهم
فتحصن المسيحيون بها ، واستعدوا للنزال ، وهاجمهم المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا
الاسوار وكسروا الابواب ، وافتتحوها عنوة واقتداراً واصدر الامير امره بذلك
جدرانها ، واعفاء مراسمها ، كيلا تكون داعية لرجوع العدو مرة اخرى ومركزاً

لاعماله ضد المسلمين .

انتصار قلورية واستشهاد الامير — بينما كان زعيم الترمان برودويل يستعد

لمقارعة المسلمين ويحتل بعض المواقع على السواحل الصقلية ؛ نزل الامبراطور الالماني اوطون الثاني يوطد ملكه بالبلاد الطليانية ، فيحتل روما ويصمد لمقارعة المسلمين ولقد خشي الروم زوال سلطانهم وانتهاء نفوذهم على يد الالمان فاستصرخوا المسلمين بصقلية فهب الامير ابو القاسم للقاء جموع الالمان والترممان واراد المبادرة باحتلال كسنته مركز المسيحيين المنيع ، وكان هؤلاء قد استعدوا للقاءه في بلاد قلورية فدارت المعركة العنيفة الهائلة في موقع غير ملائم للمسلمين بمضيق بين جبلين يمكن للنصارى ان يحدقوا فيه بالمسلمين من كل ناحية فرأى ابو القاسم وجوب الانسحاب فوراً ليتلقى صدمة النصارى في منبسط من الارض يمكنه فيه ان يدير حركاته بكل حرية لكن النصارى لم يتركوا المسلمين فسحة من الوقت لانجاز تلك العملية وتبعوهم بشدة وعنف فكاد الانسحاب الجزئي ينقلب انهزاماً كلياً واستمر ذلك التتبع مدى خمسة عشر يوماً حتى وصل المسلمون الى مكان فسيح عند ساحل البحر وتكاثر عليهم جند الفرنج ، واحاطوا بهم من كل ناحية ثم افترقت طائفة منهم قلب المعسكر الاسلامي حتى بلغت مكاناً اتخذها الامير ابو القاسم مقراً لقيادته وقد كان راجباً جواده وحوله خاصة رجاله ، فاقتتل الجيم هنالك ، وضرب احد جنود الالمان الامير ابا القاسم ضربة هائلة من سيفه شقت هامته وخر رحمه الله صريعاً شهيداً على شاطئ البحر واستمرت المعركة عنيفة هوجاء ولم يعلم المسلمون ولم يعلم النصارى ما حل بالملك المسلم الشهيد .

ثم اجتمعت ميمنة المسلمين وميسرتهم حول القلب فسدوا الثلة التي احدثها النصارى هنالك ، وقاموا في الحين بهجوم مضاد ادهشت شدته جموع النصارى فانقلبوا على اعقابهم وتبعهم المسلمون يشخون فيهم قتلاً ، واستولوا على سائر

محلات المنهزمين وعددهم وسلاحهم ، واسفرت المعركة عن قتل اربعة آلاف من الفرنج وجرح الامبراطور او طون جرحا ادى الى موته في دسامبر ٩٨٣ بعد ان التجأ منهزما خائبا الى رومة (١) .

ثم حمل المسلمون جدث اميرهم الكريم فنقلوه الى صقلية حيث ووري التراب ، رحمه الله رحمة واسعة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٧٢ (٩٨٤) .

جابر بن ابي القاسم علي

اجمع الناس يومئذ على نصب ابنه جابر ؛ اميرا مكانه ، علّه يقتفي خطى والده الموفقة ؛ لكن الولد لم يكن هذه المرة نسخة من ابيه ؛ وهل تلد النار الا الرماد ؟ فان جابرا ترك امر الجهاد وتدير الملك واشتغل بالملاذ حسب عبارة ابن خلدون واضطربت احواله .

ولم يكن الخليفة الفاطمي في مصر قد اعترف بهذه الولاية ولم يقرها بعد فاجتمع جند صقلية واهل العقد والحل فيها ؛ واعلنوا خلع جابر وترهبوا قدوم ابن عمه الوالي الجديد الذي عينه الخليفة الفاطمي :

جعفر بن محمد بن الحسن بن علي

كان من نخبة الامة ، وعلية القوم وكان من اصحاب الرأي والتدبير والمكانة السامية في بلاط الخليفة العزيز بالله ابن المعز لدين الله ، وقد كان الوزير ابن كاس يغار من جعفر ويحسده على مكانته ، فعندما جاء الخبر باستشهاد الامير ابي القاسم علي اشار ابن كاس على الخليفة بتولية جعفر بن محمد مكانه ؛ يريد بذلك ابعاده عن البلاط والتخلص من نفوذه .

(١) يقول بعض مؤرخي الفرنج ان المسلمين اسروه ولم يعطوا انه الامبراطور ثم اطلقوا سراحه مقابل مال جزيل افتدى به نفسه ؛ بينما يقول آخرون انه نجى من الاسر بفضل سفينة رومية امكنه الالتجاء اليها .

قبل جعفر الولاية وهو كاره لها ، وسار الى صقلية أخذاً معه اليها القائد التركي سبستكين الذى كان حسب عبارة ابن الخطيب فى اعمال الاعلام من جملة الترك الموصوفين بالشجاعة .

وصل جعفر صقلية يوم الاربعاء ٢٥ صفر سنة ٣٧٣ ، فسلم له جابر الامر عن طيب خاطر بعد ان حكم حكماً خائراً مدة سنة ؛ واستبشر الناس خيراً بولاية جعفر الذى سبقت شهرته طلعت ومهدت سمعته له الامر ؛ حسنت الاحوال ، واستقامت الامور وانزوى رجال النرمان اثر هزيمتهم الشنعاء السالفة ؛ فاخذ جعفر يصلح ما فسد ويرمم ما تهدم ويعمر البلاد وقد جمع حوله ثلة صالحة من رجال العلم والادب وكون فى قصره بيالمة بلاطاً ملوكياً فاخراً ؛ وكان رحمه الله من فرسان الميدان فى الشعر والادب والعلوم .

من اجل جارية بخرب ملك — كانت للخليفة بالقاهرة جارية صقلية عزيزة
عليه محبة اليه ، وكان اخوها راهباً فى البلاد الصقلية ذا مكانة وملك فبلغت الجارية من قلب الخليفة الضعيف مبلغاً جعلته يقبل مطلبها ، ويدعن لميتها ، فيرسل الى جعفر امير صقلية ، يامره بان يرجع للراهب اخى جاريته ، فلاع: بنقش ، وطبرمين ورمطة ؛ وان يرجع اليه مع ذلك كل سبي عنده قديم وحديث من تلك البلاد وبعد شهر من ورود امر الخليفة ، جاء الراهب صقلية ، يستنجز الامير تنفيذ ما امره به خليفة القاهرة .

علم جعفر انه ان نفذ ذلك الامر فكانه قد نفذ حكم الاعداء على الجزيرة لأنه سيمكن النصارى من قاعدة ما استطاع المسلمون تحطيمها الا بعد جهاد مائة عام وعظم عليه كذلك ان يعلن عصيان الخليفة ، ويرفض تنفيذ امره ، انما عظم عليه اكثر من ذلك ان يخرب ملكاً من اجل جارية فعمد الى حيلة الاريب وسياسة

الداهية فاتخذ صقلية من الخطر واحرز على رضى الخليفة فى آن واحد واليك البيان :
انزل جعفر الراهب الملك فى قصر واحاطه بالعيون ، ومنع عنه الاجتماع بمن
يريد من الناس وابقاه كذلك نحواً من اربعة اشهر ثم تظاهر انه يريد تنفيذ الامر
المطاع فجمع للراهب ' بصفة سبي يجب ارجاعه ، جماعة من الشيوخ والعجائز
والمرضى ، واصحاب العاهات ، فدفعهم اليه وامره بالرحيل بهم حالاً فضايق
الراهب بذلك ذرعاً ؛ وما وسعه الا الفرار سرّاً من صقلية والذهاب الى القسطنطينية
ومن هناك راسل الخليفة العزيز واعلمه بان عامل صقلية لم ينفذ الامر .

كان جعفر يعلم ان الراهب سوف يوالى دسائسه وان الآمرة الناهية فى قلب
العزيز ستستعمل اقصى جهود المرأة المدالة ، للوصول الى غايتها ، فبادر ، انجازاً
للحيلة ، باقتناء مركب اندلسي شحنه من ماله بسائر تحف الاندلس وطرائفها
وكتب للخليفة يقول : ان ابن ابي عامر المعروف فى التاريخ باسم الحاجب المنصور
صاحب الامر ببلاد الاندلس ، قد راسله يرغب اليه امر الدعوة الاموية ، ويدعوه
للائصواء تحت لوائها وانه يرسل له من خيرات الاندلس ويقطعه من اعمالها ماشاء
وانه هاداه بالمركب المشحون بالنفائس الثمينة ترغيباً له لكنه امتنع من قبول تلك
الدعوة وأصر على ولاء الفواطم بالقاهرة .

انطلقت الحيلة على العزيز ، فبادر بمراسلة العامل الصقلى يشكره على امتناعه مما
دعاه اليه زعماً صاحب الاندلس ويحضه على التمسك بما كان عليه محمد ابوه وحسين
جده وبقية آل الحسن من الطاعة والولاء .

وأعرض الخليفة بعد ذلك عن اجابة مطلب الراهب ، والانقياد لرغبة المحبوبة
فذهبت جهود الاخت واخيها سدى وكفى الله المؤمنين القتال ، بواسطة السياسة
والدهاء .

واستمر الامير جعفر بحكم صقلية حكماً عادلاً نزيهاً ، والامة مقبلة على اعمالها

واعداه الخارج راكدون ، واعداه الداخل ناثمون ، الى ان توفاه الله ، بعد سنتين من ولايته ، سنة ٣٧٥ .

عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي

بايع الناس بالامارة بعد جعفر ، شقيقه عبد الله فحقق الامير الجديد آمال الامة فيه وسار سيرة شقيقه الصالحة ناصحاً اميناً ، مقيماً للعدل ، رحيماً بالرعية ، ولم تطل ايامه في الملك اذ وافاه الاجل يوم ٢٣ رمضان سنة ٣٧٧ .

ابو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد

ولي الامر ، بارادة الامة ، بعد ابيه ، وكان غلاماً انما توهم الناس فيه خيراً فوجدوا فيه خيراً ، وكان حسب كلمة ابن خلدون « قد انسى بجلالته وفضائله من كان قبله منهم . »

وقد وصله سجل الولاية من الخليفة بالقاهرة ومنحه لقب ثقة الدولة وكانت ايام الناس في مدته ، كما يقول ابن الخطيب في اعمال الاعلام ، على افضل ما يشتهون وقد ضبط البلد ضبطاً محكمًا ، وظهر من كرمه وجوده وسماحته ، مالا يفي به وصف ، وعم العدل والرخاء والامن والاطمئنان سائر جهات الجزيرة ، ولم يتحرك في وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها .

قال الشاعر الكبير ابو محمد عبد الله بن محمد التتوخي المعروف بابن قاضي ميلة يمدحه من قصيد طويل :

اغر ، قضاعي يكاد نواله	لكثرة ما يدعو الى الشكر يححف
اذا نحن اخلفنا مخائل ديمة	وجدنا حيا معروفا ليس يخلف
ويقظان شاب البطش باللين فالتقى	بكفيه ما يرجى وما يتخوف
حسام على من ناصب الدين مصلت	وستر على من راقب الله مغدف
يسايره جيشان : رأى وفيلق	ويصحبه سيفان : عزم ومرهف

مطل على من شاء فمكاننا
يرى رأيه ما لا ترى عين غيره
وعى الله من ترى حى الدين عينه
ومن وعده فى مسرح الحمد مطلق
ومن يضرب الاعداء هبأفتنتى
وماهم بمجر ضعضع الارض رزه
كأن الردينيات فى رونق الضحى
يعود الدجى من ليله وهو ابيض
ويحجب نور الشمس بالتقم عنهم
لهم كل عام منك جاوز فيلق
اذا ما طووا كشعا على فرح عامهم
فكم من اغم الوجه عار تركته
لعمري لقد عادت فى الله طالبا
فطالبتهم فى الاهل حتى تركتهم
فيا فة الملك الذى الملك سهمه
... وقائلة بالسعد نجلتك جعفر
فمازلت تستجدي فتولى وترتجى
على حكمه صرف الردى يتصرف
ويغرى به ما ليس يغرى المثقف
ويحمى ربي الاسلام والليل اغضف
وايعاده فى ذمة الحكم موقف
صناديدهم والبيض بالهام تقذف
كأن الروابي منه بالنيل تداف
اراقم فى طام من الآل ترجف
ويبدو الضحى من قعه وهو اكف
ففعل الظبا فى هامهم لا يكيف
بسائل عنهم بالحوالى فتلحف
وبلوا من الآلام انشأت تقرف
وهاديه عتوت وحيه اكثف
رضاه وقد ابليت ما الله يعرف
فرادى وفى الاديان حتى تحقفوا
يراش لا كباد الاعادي وبرصف
فيا لك من عيبد بملكين يتحف
فتكفى وتستدعى لخطب فتكشف

اثناء ولايته ، مات فى بليس بمصر سنة ٣٨٦ هـ الخليفة العزيز بالله ، ونولى
الخلافة بعده اشقى عباد الله وشيطان الخلفاء الرجيم الحاكم بأمر الله ؛ فاستوزر
الحسن بن عمار بن علي ، وهو ابن عم امير صقلية المصلح العظيم .

صفحة سوداء فى تاريخ الغباطيين — ارى ان اذكر هنا استطراداً ،

وقد جردنا الحديث لذكر الطاغية الحاكم بأمر الله ، شيئاً من سيرة هذا الجبار العنيد

انرى الى حد انحطت اخلاق المسلمين في الشرق وماتت قوتهم المعنوية وبلغت بهم
المذلة والمهانة ، حتى صبروا لحكم كافر جبار ، فاسق فاجر ؛ فكأنهم هم الذين
خاطبهم معروف الرصافي رحمه الله بقوله :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها

واعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

فكان يامر ببناء الكنائس والمساجد والبيع ، ثم اذا ما تم بناؤها امر بهدمها
على رؤوس من فيها ؛ ثم ادعى انه صورة الله ، وان روح الله حلت فيه ، فامر
بان يقف الناس اجلالا لاسمه عندما ينطق به الخطيب في صلاة الجمعة ، فطاع الناس
من نذاتهم امره حتى في الحرمين الشريفين ، وامر بهدم كنيسة القيامة في القدس
الشريف سنة ١٣٩٧ (١٠٠٩) فحدث بذلك رجة هائلة في العالم المسيحي كله ،
مع ما يصحب ذلك من المبالغات الشعبية ، واذكى بذلك ناراً كانت تنقد
استعدادا للحروب الصليبية ، وادعى ذلك الفاسق الشرير الظالم السفاك للدماء انه
يعلم الغيب مع الله ؛ فوضع له رجل على المنبر هذين البيتين :

بالجور والظلم قد رضينا وليس بالكفر والحقاقة

ان كنت اوتيت علم غيب بين لنا كاتب البطاقة

وما انجى المسلمين من شروره وآثامه الا اخته ، وويل لامة تعمل امرأة
واحدة فيها ما لا يعملها سائر الرجال مجتمعين ؛ ويقال انه اراد منها منكراً فدست له
في جهة حلوان من قتله عندما كان يترصد النجوم وذهبت روحه الشريرة الى نقمة
الله وعذابه السرمدي .

فليقابل الناظر بين هذا الملك الطاغية ، وما عاناه مسلمو المشرق في نذالة وضعة
واستكانة في ايامه وبين ما كان مسلموا صقلية يتمتعون به من امن ورفاهية
واطمئنان .

وان اردت ان تعرف مدى ما اصق بالدين في هذا العهد المظلم من خرافات
واباطيل وبدع منكرة صيرت الاسلام نوعاً من الوثنية او شراً من الوثنية ، فاسم
لابن ابي دينار يقول في كتاب « المؤنس » :
« وكان بعض شيعته من المغاربة يزعم انه يعود فكانوا اذا راوا سحابة في
الجو سجدوا لها زعماً منهم انه في السحاب » .

تاج الدولة جعفر بن يوسف بن عبد الله

استمر الامير يوسف ، يدير امور صقلية ادارة عادلة رحيمة ، الى ان قضى الله
عليه بداء الفالج ، اصابه سنة ٣٨٨ (١٠٠٠) فمطل جانبه الايسر ، واتفق الناس معه
على تسليم امر الدولة ، لابنه جعفر ، ففعلوا ووضعوه على كرسي الامارة وراسلوا
بذلك طاغية الفاطميين بالقاهرة الحاكم بامر الله فصادق على ذلك وارسل لجعفر
سجل الامارة واعطاه لقب « تاج الدولة سيف الملة »

ثورة علي — في ايامه انتهى عهد النظام والامن والرفاهية وابتدأ عهد التذلي
والسقوط الذي انتهى بزوال سلطان المسلمين من الجزيرة ووقوعهم تحت
سلطان النرمان .

رأى علي بن يوسف انه احق بالامارة من اخيه فاستمال اليه جماعة من البربر
الذين يتبعون كل ناعق ابتغاء الفتنة وجماعة من العبيد وتصدى لمحاربة اخيه .

جمع جعفر جموعه وخرج للقاء الأخ الخائن فاشتعلت الحرب بين الاخوين
وتمكن جعفر من اخيه الغادر فقتله وقتل من نصره من البربر والعبيد ثم امر بنفي
جند البربر اجمعين من صقلية فنفوا منها وامر بقتل سائر العبيد وجعل جنده من اهل
صقلية المسلمين خاصة فقل بذلك حسبما يرويه البكري جنده وسبب له انهيار ملكه .
ثورة الامة — كانت سيرة جعفر اول امره حسنة مقبولة الى ان استوزر كاتبه

حسن بن محمد الباغاثي وكان فظاً غليظ القلب وسلم له السلطة واطلق يده في الاعمال فاستخف هذا الوزير الوصولي باعيان الامة وشيوخ البلاد وقوادها وامعن في اهانهم وسلك سياسة اقتصادية تخالف ما الفتة البلاد ففرض الجباية والاعشار على طعام الناس وثمارهم وكانت عاداتهم من قبل ان يدفعوا عن كل زوج بقر شيئاً معلوماً قلت محصولاتهم او كثرت ؟ ولو انه احسن المعاملة واخذ الناس بالحسنى وخاطبهم باسم الدين لكانت سياسته انجح وخطته اوفق لأنها اقرب للزكاة الشرعية مما سار عليه اهل صقلية . لكن الغلظة وسوء الطبع لا تثمران الا الفتن والقتال ولقد خاطبه القوم في الامر فاستغلظ عليهم فثارت البلاد ثورة عامة سنة ٤١٠ وحاصر الناس قصر الوالي واشرفوا على اخذه .

عندئذ امر الشيخ العجوز المصاب بالفالج الامير يوسف والد الامير جعفر ان يحمل على محفة وان يخرج للقاء الدائرين فلما رآه هؤلاء وكانت له مكانة عظيمة في القلوب اشفقوا عليه ورثوا لحاله فخاطبهم في شأن ابنه جعفر فاشتكوا من شدته وسوء تديره وتدير وزيره ، وطلبوا منه ان يعزله وان يولي عليهم ابنه الآخر احمد الاكحل فلباهم الى ما طلبوا واعلن عزل جعفر وتولية احمد ففرح الناس بذلك واستبشروا به خيراً ، وانتهى امر الثورة بسلام .

ثم ان يوسف خاف ان يصاب ابنه جعفر بمكروه ، او ان تسول له نفسه القيام على اخيه فجهاز له مركباً حمله مع آله وامواله الى مصر ؛ وبعد قليل التحق به ومعه من الاموال ٦٧٠ الف دينار ، وقد كان ليوسف من الدواب ثلاثة عشر الف حجرة دون البغال ؛ ومات رحمه الله بمصر وليست له دابة واحدة . ومن هذا العدد الجسيم ، ومن مقدار ما حمله معه من المال الى مصر تدرك مدى الثروة الجسيمة التي بلغها اهل صقلية في منتهى ذلك العصر الزاهر .

خسارة جنوب ايطاليا — كان جعفر قد اخذ يوالي الفتح في جنوب ايطاليا

عند ولايته ؛ فاحتل كالياري وبيزه سنة ٣٩٠ (١٠٠٢) ثم انه في سنة ٣٩٢ (١) هاجم مرا كز المسلمين دوج البندقية « ارسولو » وافتك منهم مدينة باري ، عاصمة الامارة فخسروها نهائيا ، وحلت بالمسلمين نكبة في مدينة ريجيو حيث خسروا اسطولهم .

ولقد اعادوا الكرة واحتلوا سنة ٣٩٧ (١٠٠٩) مدينة كوسترا Cosenza لكنهم لم يستطيعوا هناك ثباتا ؛ وكانت حوادث الثورة ضد جعفر ، وارجاعه البربر لافريقيا قد اضعفت الجند وفلت من عدده ، فاضطر المسلمون لاخلاء قلورية مرغنين تحت ضغط القائد اورسيت ؛ وذلك سنة ٤١٤ (١٠٢٦) ايام احمد الاكل السوداء .

الهجرة الى صقلية — اثناء تلك الحوادث ، وفي سنة ٣٩٥ ، وقعت بالبلاد

الافريقية مجاعة هائلة وقحط شديد فمات الناس موتا ذريعا من جراء ذلك حتى خلت البوادي واكثر الحواضر ، وخلت الاسواق والمساجد وهدمت البهائم وضاعت الارض بما رحبت فيمم الناس شطر صقلية ؛ وسارت اليها المراكب بتلو بعضها بعضا حاملة جموع اللاجئين من عامة القوم وخاصتهم ، ومن سكان الحواضر والبوادي ، فتقبل امراء صقلية هذه الجموع الالاجئة على الرحب والسعة وافسحوا لهم مكان العيش ويسروا لهم اسباب الارتزاق .

استطرد ان عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا

ارى من المفيد تعريب الفصل الثاني من كتاب « غارات الهمج » تاليف المؤرخ

(١) في هذه السنة توفي ييلاد الاندلس بطلها العصامي الكبير محمد بن ابي عامر ،

الملقب بالحاجب المنصور ؛ الذي نالت بلاد الاندلس في ايامه عزة وسلطانا قلما بلغتهما دولة ؛ ودامت ايامه في حكم مستبد عادل ٢٦ عاما غزا خلالها اثنتين وخمسين غزوة ، كان النصر فيها حليفه .

الكبير فرد بنان لوط وقد حوى خلاصة واقية عن تدخل المسلمين في البلاد الطليانية؛ كانت مدينة نابولي قد اضطرت تحت ضغط الدوق سيكار امير بينيفانت ان تدفع جزية له وما قبل اهل نابولي امضاء المعاهدة التي عرضت عليهم سنة ٨٣٦ الامكرهين وجلين ولقد استغاثوا امبراطور الفرنج لويس الناسك فلم تجد استغاثتهم اذنا صاغية عندئذ اتجه الامير اندري دوق مدينة نابولي نحو مسلمى صقلية يستنجدهم فلبوا دعوته وانجدوه واضطروا خصمه اللومباردى للانسحاب سنة ٨٣٧ ثم اعاد المسلمون الكرة بحراً واحتلوا مدينة ابرنديزي وما انسحبوا منها الا بعد ان تركوها طعمة للنيران .

اخذ المسلمون يوالون التقدم لحسابهم الخاص فاحتلوا مدينة «طارنطة» رغم محاولة اهل البندقية الدفاع عنها ثم تمكنوا من مدينة «انقونة» ورات البندقية يومئذ انها مهددة فعلا فاخذت تتسلح وتجهز لكن اسطولها غلب وانهمز تجاه اسطول المسلمين سنة ٨٤٢ .

ولقد كان موت سيكار الآف الذكر سنة ٨٣٩ مساعداً للمسلمين على انتصاراتهم الباهرة؛ اذ ان المملكة اللومباردية الكبرى قد انقسمت على نفسها اثر موت عاهلها وتألفت على انة ضها مملكتا بينيفانت وسالرنه ، وكانتا مرتعا للفتن التي يثيرها الطامعون في الملك .

وما كان هؤلاء الطامعين من معين يعتمدون عليه الا جند المسلمين يستنجده مرة بعد اخرى احد الطامعين ضد خصمه ، ومن هذا القبيل ان الامير راد لشييس البينيفانى قد استعان بالمسلمين ضد خصمه الامير سيكونولف السالرنى ؛ كذلك كان كونت مدينة (باري) الامير باندو قد فتح لهم ابواب مدينته ، ولم يكن النجاح حليف المسلمين في نصرة هذا الامير ، فقد انهزموا ورجعوا لمدينة باري فتمكنوا من اكنافا واصبحت لهم طيلة ثلاثين سنة مركزا هائلا يباشرون منه

اعمالهم وغاراتهم ؛ ولقد اضطر راد لشيئ ان يفتح ابواب عاصمته ينييفانت في وجه حلفائه الاشائوس ؛ وكان المسيطر الحقبقي على تلك الامارة هانيك الاوقات هو زعيم المسلمين « مصر » وذلك ابتداء من سنة ٨٤٢ .

ارتأى بومثد الامير سيكونوف ان يقاوم مسلمي صقلية بمجموع من مسلمي اسبانيا وجنوب فرنسا وحتى المسلمين الذين افتتحوا جزيرة افريطاش عام ٨٢٦ ؛ وهكذا تمكن من افنكك مقاطعة ييفنتان من بين يدي خصمه لكنه لم يستطع الاستيلاء على العاصمة (باري) .

في اليوم الخامس عشر من شهر جوان سنة ٨٤٤ وقع تنوبج الامير لويس ، ابن الامبراطور لوثير ملكا على ايطاليا وكبرت الآمال في رؤية هذه البلاد موحدة القوى بصفة كانت في اشد الحاجة اليها ؛ لكن الملك الشاب واجه الفوضى العميقة التي كانت قد ضربت اقطابها في البلاد ؛ ثم ان المملكة قد ذابت الامرين من جراء تهاونها بامر الاسطول الحربى .

ذلك ان البحر الابيض المتوسط كان بومثد بحيرة اسلامية خاصة ولم يكن أي اسطول من اساطيل المسيحية يستطيع ان يعترض لاعمال السفن الاسلامية في غاراتها وفي انزال الجند بصفة متوالية في مختلف السواحل .

اتسعت اعمال الاسطول الاسلامي وامت السواحل الطليانية ، فعمد دوق مدينة نابولي الامير سيرج لجمع قوى امارات نابولي وقايت وامالفي وسورنته ليتمكن من مقاومة تلك الغارات ؛ لكنه لم يستطع منع المسلمين من احتلال جزيرة ايتسيا ورأس سورنته والتمكن منهما .

في سنة ٨٤٦ وقع الخطب الجسيم الذي تزلزل له العالم المسيحي لوعة واسى وذلك ان اسطولا اسلاميا يشمل ٧٣ سفينة ، كان قد اقلع من افريقيا واستولى على مدينة اوستى عند مصب نهر التيبر ، ثم اجتاز ذلك النهر حتى ارسى تحت جدران

مدينة رومة يوم ٢٩ اوت من تلك السنة .

لم تكن لدى المسلمين يومئذ قوة كافية تمكنهم من مناجزة رومة القتال ومحاولة احتلالها ، فانتهبوا كنيسة القديس بطرس والقديس بولس ، وهما خارج الاسوار وانتهبوا حرمة قبور القديسين ؛ وما تركوا تلك الاصقاع مثقلين بالغنائم والاسلاب الا عندما اصبحت خالية من الزاد اللازم لهم .

ذهبوا على الأثر يحاصرون مدينة قايط ، ولم يستطع الفرنج ولا اللومبارد صدم عن ذلك فكانت خيبة المسيحيين متوالية ، لكن مدينة قايط قد تصلبت في الدفاع وما انقذتها الا عاصفة هوجاء اتلفت اغلب سفن الاسطول الاسلامي .

مهما كانت امبراطورية الكارولين (خلفاء شارلمان) قد سقطت في مهاوى الانحطاط فانها لم تكن قادرة على عدم التدخل ومحاولة وضع حد لهذه الحالة اذاك اتفق الامبراطور لوثير وابنه لويس ملك ايطاليا وباشرا تحصين الجهة التي يلتقي فيها نهر التيبر بالبحر وذلك دفاعا عن كنيسة القديسين ضد غارة اسلامية اخرى كما وطدا عزمهما على مهاجمة المسلمين الذين استقرت اقدامهم في مملكة البيفنتان واستصرخا رجا " المسيحية لا عاتقهما على ذلك واستقر القرار اخيراً على ان الجند الاصلي المؤلف من الفرنج وجهات بورغونيا وبروفنسا (بالبلاد الفرنسية) يجتمع عند مدينة بافيا يوم ٢٥ يناير ثم يقصد مدينة لارينو حيث يجد العمارة البحرية البندقية وجند دولة البابا وفي تلك الاثناء يجب على اسقف مدينة اريزو ومركز مدينة اسبوليت ودوق مدينة نابولي ان يحاولوا جميعا اصلاح ذات البين بين امراء بلاد بينيفانت المتخاصمين .

نجحت هذه المحاولة وكلت بالفوز وتمكن الحلفاء المسيحيون من استخلاص مدينة بينيفانت وهنالك وقع القضاء على كامل الحامية الاسلامية وزعيمها الامير مصعر (١)

(١) يقول مؤرخو الطليان ان مصعر هاجم مرة مدينة ايزرنا وقبل ان يصلها

ثم اقتسم الاميران راشلديس وسيكوفولف كامل بلاد ايطاليا الجنوبية وتعاهدا على ان لا يركن احدهما لجانب المسلمين ضد خصمه مرة اخرى وتم كل ذلك سنة ٨٤٧ .

بقيت يومئذ بين ايدي المسلمين مدينة « باري » يبعثون منها غزاتهم وسراياهم فتولي رهبان « دير كاسان » نشر الدعوة لمحاربتهم واقنعوا الملك الونز الثاني بوجود ذلك فهاجم المسلمين وغلبيهم سنة ٨٥٢ الا انه لم يستطع او لم يرد احتلال مركزهم مدينة « باري » .

على ان قرصان المسلمين كانوا هاتيك الاوقات يقضون مضاجع السواحل الشرقية فاحتلوا مدينة لوني وتركوها من بعد طعمة للذبران ثم صعدوا مع مجرى نهر الرون وتمكنوا من مدينة « ارل » بفرنسا سنة ٨٤٩ .

في نفس هذه السنة ارادوا تجديد المحاولة التي لافقت من قبل ايماء نجاح فجمعوا على السواحل السردينية اسطولهم ونحروا عباب البحر ثم ارسوا اتجاه مدينة اوستي لكن مصب النهر كان هذه المرة محصنا فلم يستطع المسلمون اقتحامه ثم جاء اسطول مدينة نابولي فنازل الاسطول الاسلامي الى ان ثارت زوبعة شتت شمل هذه العمارة كان يومئذ الامير مفرج يثبت مركزه بمدينة باري ويدعم هنالك سلطانه وقد اختطف في المدينة مسجداً للمسلمين واعلن انفصاله عن امير صقلية ثم اتخذ لنفسه لقباً كان قليل الاستعمال يومئذ بين المسلمين الا وهو لقب « السلطان » .

اعلمه الشوافون الذين ارسلهم يرتادون الطرق ويمهدون السبل امام الجيش ان زلزالاً حطم اسوار المدينة وان المسلمين يستطيعون دخولها دون قتال فقال مصعرون ان الله قد اظهر سخطه على هذه المدينة وانتقم منها فلا ازيد اهلها هما على هم ولوى عنانه وتركها وشأنها ترمم خرابتها كذلك يؤكدون انه كان يمر حوالى دير كاسان ولم يهاجمه ولم يرد احتلاله .

واقـد كانت الخلفـات المستـحكمـة الحلقـات بين امراء ايطاليا وزعماء مدنها تمنعهم من جمع الذمل والتكـذل لمحاربة هذه الدولة الناشئة فاغتـنمت هي تلك الفرصة ونـكـلت بالبلاد تنكيلا ذربعا وكانت ترسل بسفنها مثقلة بالرقيق يباعون في الاسواق الافريقية .

ويؤكد الرهبان المؤرخون بدير كاسان ان هذا السلطان كان يلتذ كل يوم بقتل خمسمائة نفس (١) واخيراً تمكن السلطان من احتلال دير كاسان نفسه (٢) وهـناك اخذ يلهو بالشراب في اباريق الرهبان ويتطيب ببخورهم .

اخيراً ، فيما بين سنتي ٨٦٦ و ٨٦٧ ، اعتزم الامبراطور نجدة المسيحيين بايطاليا ، فنازل المسلمين ودحرهم حتى اووا الى مدينتي باري وطارنطة ؛ لكن الامبراطور لم يستطع نصب الحصار على تينك المدينتين نظراً لفقد عمارة بحرية .

ولقد كان اسطول رومي جاء تلك الربوع ، لكنه اضطر للرجوع من حيث أتى ، وهكذا قويت آمال المسلمين وامتطوا صهوة الخيل العتاق التي غنموها من الافرنج فاندفعوا بجوسون خلال الديار وبمعنون في غزوها .

لكن الامبراطور لويـز لم يغـبر عزمه رغم مرضه فخاطب جماعات المسيحيين الذين امدوه بقوة من رجال صقالبة دلماسيا (بلاد يوغوسلافيا اليوم) وسربيا ؛ وجاء اسطول القسطنطينية يعزز بحريا تلك الحملة وحـمى الوطيس برأ وبحرا واندحر جند اسلامي جاء مدداً لمدينة باري فبعد حرب عوان دامت اربعة اعوام وبعد حصار ضيق النطاق سقطت مدينة باري يوم ٢ فيفري سنة ٨٧١ (٣)

(١) القرية ظاهرة ، ولا ينتظر من راهب بدير كاسان في حالة حرب مـم المسلمين وفي القرون الوسطى ان يكتب غير هذا .

(٢) المسافة بين باري ودير كاسان ٢٥٠ كيلو متراً .

(٣) يقول مؤرخو الطليان ان الامبراطور كان قد اقسم ليقـتلان كل مسلم في

لكن هذا النصر قد افاق امراء ايطاليا وبلبل افكارهم ، خوفاً من اغتنام الامبراطور تلك الفرصة لنصب سلطانه عليهم واخضاعهم ، فديرُوا مكيدة ووقعوا الامبراطور اسيراً بين ايديهم يوم ١٣ اوت من تلك السنة ، وما اطلقوا سراحه وارجعوه لبلاده يوم ١٧ سبتمبر الا بعد ان تعهد بان يترك لهم سائر الغنائم والاسلاب التي استولى عليها بعد انهيار دولة المسلمين في باري كما تعهد لهم بانه لا ينتقم منهم جزاء خيانتهم .

في هذه الاثناء كان الجيش الاسلامي الصفلي تحت قيادة امير صفلية العباس بن الفضل يكتسح جهات نابولي وقابو وبلاد البينيفنتان ، لكن امراء نابولي وقابو وبينفانتى تألبوا ووقفوا تيار المسلمين ؛ ولقد هاجم هذا الجيش الاسلامي مدينة « كاسينو » بشدة وكاد يتمكن منها لولا ان الامبراطور رغماً عما جرى قد هب انجذتها ، ولقد اصابه مرض اثناء ذلك ، لكن قواده نالوا نصراً مبيناً وفكوا الحصار عن المدينة في صابفة سنة ٨٧٢ ، لكن موت الامبراطور سنة ٨٧٥ قد جعل هاتيك الجهود الكبيرة تذهب سدى ؛ ذلك ان خليفة الامبراطور شارل الاصلح ، وقد ارسل البابا يستغيث به ضد المسلمين ، قد جند جنداً واجتاز جبال الالب ثم عاد ادراجه بسرعة نحو بلاده وقضى نحبه دون ان يقوم بادنى عمل ، ولم يجد البابا يومئذ من ملجأ يلجأ اليه الا مصانعة المسلمين ، فتعهد لهم بدفع جزية مكنته من راحة نسبية .

المدينة ، وكان الجوع قد حطم قوى المسلمين فبعد مقاومة يائسة استسلموا واحتل الامبراطور المدينة فذبح بسيوف جنده سائر « الكفار » ولم ينج منهم الا السلطان مفرج واثنان من خاصته هما حنون وعبد الباقي ؛ اذ اختفوا بعد انهيار الدفاع في برج من الابراج ، ثم ساروا ملتجئين لأمير بنيفانت « ادلفيز » فكرم وفادتهم معترفاً بحميل السلطان الذي كان قد انقذ شرف ابنته في سالف الايام .

لقد كان بحر الادرياتيك يومئذ مرتعاً لأعمال القرصنة الاسلامية و كانت مدينة البندقية وحدها تقاوم هنالك هاتيك الاعمال اما ايطاليا الجنوبية فقد كان امير بينيفانت غير مستطيع وحده الذود عنها .

كانت مدينة بيزنطة « القسطنطينية » قد ملكت عائلة امبراطورية جديدة هي عائلة مقدونيا وتولى كبرها يومئذ بازيل الاول واسترجعت بيزنطة ما كانت فقدته من صفة الحامية فجهز الامبراطور اسطولاً حروبياً عتيداً يشمل اربعين سفينة ارسل به نحو السواحل الصقلية الاسلامية فنال ذلك الاسطول فوزاً مبيناً . ثم انه في سنة ٨٨٠ تمكن الروم البيزنطيون من استخلاص قلورية من بين ايدي المسلمين ولقد كانت مدينة باري قد تقبلت قبل ذلك والياً رومياً اغريقيا من قبل الامبراطور . لكن تلك الراحة لم تدم حيث اننا رأينا سنة ٩٠٢ الامير ابراهيم بن الاغلب الثاني يكتسح بجنده ارض قلورية ويلاقي حقه نجاه مدينة كوسترا .

ورغماً عما اصاب المسلمين في الجنوب الايطالي فقد بقيت بايديهم مراكز منيعة مثل ساينو شمال بينيفانت وجنوب بسطوم وميدان كاريليانو المحصن وخرائب دير فارفا ومن سائر هذه الجهات كانوا يستطيعون باستمرار تهديد مدينة روما .

يومئذ اعزم البابا يوحنا العاشر التخلص نهائياً من هذه المعازل الاسلامية المهددة ، فنح تاج الامبراطورية لير انجي الفريولي في دسامبر ٩١٥ ، لكن هذا الامبراطور الدعي لم يعمل عملاً ، وانسحب للشمال الطلياني ، فاعتمد اهل روما على انفسهم واستعانوا بمر كيز اسبوليت الامير البريك ؛ فاستولوا على معقل « فارفا » الاسلامي ، ثم تألب سائر امراء ايطاليا الوسطى والجنوبية وبذلوا اقصى جهودهم فتخلصوا من المعقل الاسلامي المنيع (كاريليانو) واعانهم الاسطول الرومي على ذلك ، واستولوا على المعقل وقتلوا سائر من كان به من المسلمين ؛ واقد

كان ذلك النصر الحاسم في شهر اوت سنة ٩١٦ من اكبر وقائع ايطاليا الحربية ، وقد شارك فيه البابا بنفسه وعرض ذاته للخطر وكان فخوراً بذلك .

كان ذلك النصر قد درأ عن مدينة روما الخطر الاسلامي ، لكنه لم يدرأ عن السواحل خطر القرصنة ، ولم يدرأ عن الجنوب الطلياني خطر الغارات والغزوات .
ففي سنتي ٩٣٤ و ٩٣٥ ، استولت جنود الخليفة ابي القاسم الفاطمي على مدينة جنوة حينما ما وانتهبتا .

وفي سنة ٩٦٥ اندحر اسطول الروم تجاه مسلحي صقلية عند مدينة مسينا سنة ٩٦٥ (وقعة المجاز) (١)

وقد كانت بومثد تكونت الامبراطورية المسيحية في المانيا ، واراد الاباطرة ان يتولوا كبر الحملة على المسلمين .

ففي سنة ٩٨٢ سار الامبراطور اوطون الثاني نحوهم فاحتل مدينة طارنطة ثم واجه جند امير صقلية ابي القاسم عند السواحل تجاه مدينة سيديلو او كوترني ؛ ولقد تولى الفرسان الالمان مهاجمة القلب الاسلامي فضعضوا قواه ودحروه ، لكن الجناحان الاسلاميان تمكنا فورا من تلافي الفادحة ؛ فانطبقا بسرعة على فرسان الالمان ، وباء الالمانيون بومثد بانهزام شنيع ؛ وانسحب الامبراطور مغلوبا مقهورا وما استطاع الفوز بنفسه الا بفضل سفينة رومية انقذته من الاسر ؛ اما امير صقلية فقد لقي حتفه شهيداً اثناء تلك المعركة (٢) .

ولقد مات الامبراطور قبل ان يتمكن من الاخذ بالثار وحدث اضطراب في الامبراطورية فاصبح كل امير طلياني يتولى بمجهوده الخاصة مقاومة المسلمين .

ففي سنة ١٠٠٢ حاصر مدينة بارى القائد الصقلي « الصافي » فدافع عنها القائد الرومي والعمارة البندقية معاً وابتعد عنها المسلمين ثم ان مدينة بيزا تمكنت سنة ١٠٠٦ بواسطة

جهودها الخاصة من دحر اسطول المسلمين عند مدينة رجبو ثم تدخل الترمان وانتهى
امر المسلمين .»

اسد الدولة احمد الاكحل

اولاد ابوه وارتضاه الناس في السارس من شهر المحرم سنة ٤١٠ وابتدأ اعماله
بحزم شديد ف ضبط الامور ومهد الراحة ودانت له سائر البلاد .

ولقد رأى الترمان اثر حوادث الثورة السالفة ان الشقاق اخذ يدب من جديد
بين مسلمي صقلية فراوا ان يهبطوا الفرصة واخذوا يناوشون جند المسلمين لكنهم لم
ينالوا في اول الامر منالا واوقفهم جنود احمد عند حدهم .

سياسة فرق تسد — كان اسد الدولة احمد الاكحل يعتمد على ولده جعفر

كما كان اخوه جعفر يعتمد على وزيره الباغاثي فكانت النتيجة خسرانا مبينا لهذا كما
كانت النتيجة خسرانا مبينا لذلك .

رأى جعفر بن احمد انه لا يمكن حكم صقلية والثبات بها الا بالاعتماد على
فريق فيها دون فريق وتكوين عصبية متينة حول قصر الامارة تحميه من عاديات
الزمن واضطرابات الشعب. ولوانه اعتمد على العدل والانصاف واحقاق الحق وازهاق
الباطل كما اعتمد اجداده واعماله من قبل لكان مآله احسن وعاقبته اضمن .

كان سكان صقلية ينقسمون الى فريقين فريق الصقليين المتاصلين الذين استوطنوا
البلاد منذ اوائل عهد الفتح وفريق الافارقة الذين جاءوا البلاد حديثا مع ولاية
الفاطميين واستقروا بها واغلبهم من البربر من كتامة وغيرها .

اراد جعفر ان يعتمد اول الامر على فريق الصقليين فخطبهم في الامر وقال
لهم اننى أريد ان اخرج عنكم هؤلاء الافارقة الذين سكنوا بلادكم وشاركوكم في
دياركم واعتمد عليكم وحدكم في حكم البلاد فقال له وجوه القوم حذار ان تفعل

ذلك ايها الامير فانتا قد صاهرناهم واصبحنا واياهم شيئا واحدا فلما اخفق مع هذا الفريق خاطب زعماء الافارقة في الموضوع فقبلوا الاقتراح بسرور وابتهاج واصبحوا منذ تلك الساعة فريقا ممتازا في الامة ، واعفوا من دفع الضرائب ، فاصبحت الاتاوات لا تمس الا الصقليين الاصليين خاصة ؛ فوقع من جراء ذلك اضطراب عظيم ، وانفصم جبل الامة وسادت الضغينة والاحقاد بين قسميها ، واستعد النرمان الذين كانوا يرقبون ذلك عن كثب لانزال الضربة النهائية على رأس ذلك الهيكل الذي تداعى للسقوط .

تدخل المعز بن باديس — اصبح الصقليون في كرب عظيم فارسلوا خفية وفداً

من وجوههم امّ بلاط المعز بن باديس مستصرخا مستنجدا ، وقالوا له : لئن لم ترسل من قبلك من يحكمنا حكما عادلا نزيها فانتا سنسلم انفسنا للروم تخلصا من الظلم القادح كان المعز بن باديس قد استقل فعلا بامور افريقيا وصفا له الجو موقتا فاقبل على الانشاء والتعمير ، وكانت له مدينة من اجل واروع ما رآته البلاد الافريقية . وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تتخبط في مصر في دياجير من الكفر والاحاد ، ومن الفسوق والفجور ومن المظالم والارتباك بين عصر الحاكم بامر الله وعصر ابنه الظاهر لاعزاز دين الله ، بين ادمان الخور والاعتكاف على الملذات ؛ فكان المعز ابن باديس يبعث القواطم بغضا يكتنه في فؤاده ، وكان يرى وجوب استخلاص اكثر ما يمكن من بلاد الاسلام وانتشالها من بين براثنهم .

وكذلك كان اهل صقلية قد راوا ان لا امل لهم في الاعتماد على الفاطميين ولا نجدة ترجى لهم من قبلهم فولوا وجههم كما رايت شطر القيروان يستصرخون ابن باديس ويستنجدونه .

اغتنم ابن باديس تلك الفرصة انجادا لاهل صقلية وادخلا لتلك البلاد تحت سلطة القيروان كما كانت اول مرة ، فارسل ولديه عبد الله وايوب وارسل معها

جنداً قوياً يشمل ثلاثة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل فدخلوا ارض صقلية وهاجموا قصر الامارة مع من انضم اليهم من الصقليين فاستولوا عليه وقبضوا على الاخرق احمد الاكحل في الخالصة وازهقوا روحه سنة ٤١٧ هـ ؛ واخذ ابناء المعز بديران الامر بحكمة ورأي سديد .

نكبة هائلة — كان الترمان ، كما قلنا يرقبون عن كذب سير الامور بصقلية ، ويستعدون لانزال الضربة الحاسمة بها ، وما كان الصقليون عن ذلك من الغافلين ، فقد ارسلوا الى المعز يستنجدونه ويستصرخونه ، ويطلبون اليه ان يمدم بقوة عتيدة تمنع عنهم خطر الترمان وتحمي ارض الجزيرة من كل طامع ؛ واقد كان الترمان وجماعة النصاري كما اسلفنا ، قد استخلصوا كامل ارض قلورية واحاطوا بصقلية متكاليين .

لبي المعز بن باديس رحمه الله الطلب ؛ فانتدب الناس واستنفرهم للجهاد ، وتطوع خلق كثير باعوا انفسهم لله وفي سبيل دينه ، وتم تجهيز اسطول بحجم ٤٠٠ سفينة مثقلة رجالا وخيلا وسلاحاً .

انما قضى الله يومئذ بهلاك الجزيرة ولا مرد لقضائه ، فذلك الاسطول العتيبد الذي كان يستطيع بهوته وبمن فيه ان يقلب صفحة التاريخ في صقلية ، بله اروبا نفسها ، قد سار حتى وصل جزيرة قوصرة وهناك اصابته زوبعة هائلة اتلفتته كله ولم ينج من اهله الا القليل ؛ فكانت هذه النكبة المؤلمة والكارثة الجلى اكبر اسباب ضياع صقلية ، ومن اعظم اسباب ضياع ملك ابن باديس نفسه الذي اندك فيما بعد تحت ضربات الاعراب الهاليتين .

في هاتيك الاثناء ، اجتمع اهل صقلية يتلاومون ، وقالوا لقد ادخلتم على حكمكم غيركم ، وفقدتم استقلالكم ، واستنصرتكم من لا يستطيع نصركم فاتفقوا على نصب امير من عائلة بنى الحسن وارجاع الملك لهم ؛ فثاروا بولد المعز وقتلوا

من جندها زهاء الثمانمائة رجل، وما وسع عبد الله وأيوب إلا الرجوع بفلولهما
لافريقيا ونصب الصقليون في بالرمة صمصام الدولة حسن شقيق أحمد الا كحل القتل

صمصام الدولة حسن بن يوسف

ثائر العقد من وسطه ومن أطرافه، وأخذ النرمان يتقدمون في البلاد وكان
الصمصام مفلولا فلم يستطع ان يوطد ملكه او يثبت سلطانه، ولم يجد المسلمون يومئذ
وسيلة تنجيهم من ذلك الخطر الداهم خطر النرمان الميت إلا الا تقسام على أنفسهم
واستقلال كل أمير بناحية.

ففي بالرمة العاصمة كان الصمصام حسن يحكم الناحية الشمالية وفي مازرة وما
حولها استقل بالامر عبد الله بن منكوث وفي جرجنتي وما إليها استبد بالامارة علي
ابن نعمة بن الحراس وفي سرفوسة وقطانية استقر بن الثمنة واستقل في جهة مسينا
أمير آخرو أصبح أمر البلاد فوضى و تغلب سفلة القوم على اصحاب الرأي والاصالة
فيهم .

القادر بالله بن الثمنة

اجتمع أهل بالرمة وأعلنوا خلع طاعة حسن لماراوا من ضعفه وما كان ضعيفاً
إلا بهم وأمروا عليهم القادر بالله ابن الثمنة ضامين بذلك إمارتي سرفوسة وقطانية
وإمارة بالرمة وكان ابن الثمنة متزوجاً ميمونة أخت علي ابن الحواس أمير جرجنتي
فكان ذلك بادرة من بوادر جمع الكلمة ومحاولة بائسة لنوحيد صفوف تلاشي نظامها
أبدى (١)

الحرب الاخوية والخيانة — سكر الامير يوما فحاط فانهم زوجه أخت ابن

(١) اثناء هذه الحوادث سنة ٤٣٠ وما حوالها توطد قدم الاتراك السلجوقيين

ببلاد الشام و فلسطين وانتزعوها من أيدي ملوك الطوائف وأمراء الفاطميين .

الحواسب تهمة هي منها بريئة فقطع لها عرق الزند لتموت من نزيف الدم لكن ولدها ادر كها في اللحظة الاخيرة وجاءها بالاطباء فامشوها ومن الغد ادرك الامير سوء فعله فاعتذر لزوجه وتظاهرت بقبول الاعتذار ثم طلبت اليه ان تذهب لزيارة اخيها فاذن لها وهناك قصت على ابن الحواسب ما فعل بها زوجها فاقسم لينتقم منها منه وجمع جموعه لا لرد غائلة النرمان بل لمحاربة امير بالرمة ابن الثمنة والتقى الجمعان ودارت الدائرة على ابن الثمنة ومن معه وانتصب ابن الحواسب اميراً في بالرمة اما ابن الثمنة فقد ادت به النذالة والصغار الى جزيرة مالطة حيث كان ملك النرمان وطلب اليه ان يمهده بمجنده ووعد به بملك الجزيرة وما كان روجى الاول ملك النرمان ينتظر الا مثل ذلك الحادث فجمع اسطوله وجموعه الوحشية وسار مع الخائن ابن الثمنة كما سافر منذ مائتي عام اسد ابن الفرات مع الخائن اوفيماس لفتح صقلية .

خراب دولة المعز على يد بني هلال — في سنة ٤٣٥ (١٠٤٧) حيث كانت

تجرى هذه الحوادث وحيث كان من المستطاع التفات المعز من جديد بعد نكبة الاسطول السالفة الذكر وبعد اخراج ولديه من صقلية لتلك الناحية البائسة وقعت في مدينة القيروان الفتنة الشهيرة ضد الشيعة او الرافضة كما كانوا يدعون في ذلك الوقت وانقض اهل السنة على رجال الشيعة فقتلهم في الحواضر والبوادي اشنع قتلة واعلن المعز يومئذ خلم طاعة الفاطميين وخطب للخلافة البغدادية العباسية وحمل الناس عامة على مذهب مالك ابن انس رضي الله عنه ثم جاءه من بغداد سنة ٤٣٩ الوزير ابو الفضل بن عبد الواحد الدرعي يحمل له من الخليفة العباسي القائم بامر الله تقليداً يعترف له فيه بالاستقلال .

بلغت تلك الانباء مدينة القاهرة ، فمظم الامر على بلاط الفاطميين فيها ، واقد اشار على الخليفة المنتصر بالله ، وزيره احمد بن علي الجرجاني ، ان يرسل

اعراب بني هلال على بلاد المغرب، انتقاما للشيعه، ونحطيمًا لسلطان صنهاجة
وملك بني باديس؛ وتخلصا في آن واحد من أولئك الاعراب الذين كثرت
قلاقلهم في شرق الصعيد المصري .

قبل الراى كما هو معلوم في كتب التاريخ، وانصب على ارض افريقيان من
تلك الجوع نحو النصف مليون نسمة، صادموا جند المعز سنة ٤٤٠ فدحروه
وتحصن في القبروان فنازلوه بها واحتلوها والحقوا بها نكبة كانت من اكبر
نكبات التاريخ في العالم الاسلامي، فاندكت بذلك معالم مدينة من ازهى وازهر
مدنيات هذه البلاد :

يقول شاعر بلاط المعز الحسن ابن رشيق، واصفا مصيبة القبروان من قصيد
طويل :

حسنت فلما اذ تكامل حسنها	وسما اليها كل طرف وان
وتجمعت فيها الفضائل كلها	وغدت محل الامن والايمان
نظرت لها الايام نظرة كاشح	ترنو بنظرة كاشح معين
حتى اذا الاقدار حم وقوعها	ودنا القضاء لمدة واوان
اهدت لها فتننا كليل مظلم	وارادها كالناطح العيدان
بمصائب من قادع واشالب	ممن تجمع من بنى دهمان
فنكسوا بامة احمد اتراهموا	امنوا عقاب الله في رمضان
نقضوا العهود المبرمات واخفروا	ذمم الاله ولم يفوا بضمان
فاستهحسنوا غدر الجوار واثروا	سبي الحريم وكشفة النسوان
ساموم سوء العذاب واظهروا	متعسفين كوامن الاضغان
والسعدون مقسمون تنالهم	ايدى العصاة بذلة وهوان
يستصرخون فلا يغاث صريحهم	حتى اذا سثموا من الازمان

بادوا نفوسهم فلما اقتدوا ما جمعوا من صامت وصوان
خرجوا حفاة عاثدين بربهم من خوفهم ومصائب الالوان
هربوا بكل وايدة وقطيمة وبكل ارملة وكل حصان
فتفرقوا ايدي سبا وتشتتوا بعد اجتماعهم على الاوطان

اما المعز فقد ترك اواسط البلاد للاعراب والتجأ الى الساحل ، فاستقر في المهديّة . ثم هدأت نوعا ما عاصفة الاعراب الذين اخذوا يتوغلون في بلاد الشمال الافريقي من مشرقه الى اقصى مغربه ، واخذت الدولة الصنهاجية تنتعش شيئا فشيئا ، وكانت فيها باقية صالحة للحياة .

ملوك الطوائف وتميم بن المعز — انقسمت البلاد التونسية يومئذ ، وكانت مهد وموطن الدولة الصنهاجية الى عدة امارات صغيرة واهية البنيان ضعيفة الشأن . فمنها امارّة بني خراسان بمدينة تونس وما حوالها ، استقلوا بشؤون تلك الناحية من حوالي سنة ٤٥٨ الى سنة ٥٥٣ (١) .

ومنها امارّة بني جبارة بن مكي استقلت بناحية سوسة الى سنة ٥٥٤ . وامارة بني مدافع بن جامع الهلالي ، استبدت بناحية قابس وما اليها من بلاد

(١) اثر نكبة الدولة الصنهاجية الشرقية على يد الهلاليين ، وخراب القيروان ، اعلنت مدينة تونس التي كانت يومئذ من ازهى وازهر المدن في الشمال الافريقي انضمامها للمملكة الصنهاجية الغربية ؛ مملكة بني حماد ، وكانت قد استقرت في بجاية وانظمت شملها وذاع صيتها واصبحت كعبة القصاد ومحط رجال العلم والادب وكبار الشعراء ؛ فعين ملك بجاية الناصر ، الامير عبد الحق ابن خراسان واليا على مدينة تونس وما حوالها ، فلما استقر به المقام وتم له الاتفاق مع اهل البلاد ؛ اعلن استقلاله ، وحافظ هو وبنوه على ذلك الاستقلال في تلك الامارة الصغيرة الرقعة الكبيرة الاهمية مدى مائة عام .

الجنوب الى سنة ٥٥٥ .

اما ناحية الجريد ، فقد استقرت بها عائلة بنى الرند ، ودام استقلالها اكثر من الامارات السابقة اي الى سنة ٥٧٥ .

واخيراً بمدينة المهديّة وحواليها من ناحية الغرب والجنوب ؛ ثبتت امارّة بنى المعز بن باديس الصنهاجية ، الى سنة ٥٥٥ ، حيث جاءت دعوة مهديّة اخرى من ناحية المغرب كانت هذه المرة سنية موحدة قضت على ملوك الطوائف ووحّدت بلاد الشمال الافريقي في امور الدين والدنيا ؛ على يد بطل من ابطال الاسلام الخالدين عبد المؤمن بن علي .

وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهديّة، كما ازدان ملكها من قبل بالقيروان بيلاط فاخر التفت حوله ثلة سالحة من رجال العلم واعلام الادب وكبار الفلاسفة والشعراء ؛ فكانت ايام المهديّة على صغر حجم المملكة وتعاقب الحروب بينها وبين الهلالين اياماً مشهودة في تاريخ الفن والعلم والادب ، وقصدها من كل ناحية امثال فيلسوف الاندلس الشهير امية ابن ابي الصلت والمجاهد الاكبر الامام المازري والتجأ اليها بعد خراب صقلية شاعرها الاعظم عبد الجبار بن حمديس ؛ وكان امير المهديّة تميم بن المعز من خير الرجال عقلاً وادباً وحسن ادارة ومعرفة باصول الادب والشعر ، وانه ليصور الك حال مملكته وحال رجاله وحال العالم الاسلامي كله في ذلك العصر اذ يقول :

يادهر ما اقساك من متلون	في حالتيك وما اقلك منصفاً
اتروح للنكس الجهول ممهداً	وعلى الليب الحر سيفاً مرهفاً
واذا صفت كدرت شيمة باخل	واذا وفيت نقضت اسباب الوفا
لا ارتضيك وان كرمت لانتى	ادري بانك لا تدوم على الصفا
زمن اذا اعطى استرد عطاءه	واذا استقام بداله فتحرفاً

ما قام خيرك يا زمان بشـره اولى بنا ماقل منك وما كفى
ثم هو يخاطب البقية من قومه ، يحرضهم ويستفز منهم الحمية ، كأنه يلهم فيهم
نار الايمان ليرسل بهم نجدة لمسلمي صقلية :

منى كانت دماؤكم تطل اما فيكم بشار مستقل
اغانم ثم سالم ، ان فشلت فما كانت اوائلكم تذلل
ونتم عن طلاب المجد حتى كأن العزم فيكم مضمحل
وما كسرتم فيه العـوالي ولا يبيض تفل ولا تسفل
وتسمو به احيانا نفسه الالية حتى تبلغ ذروة الطموح للعلی واسترجاع المجد
الآفل :

بكر الخيل دامية النحور وقرع الهام بالقضب الذكور
لاقنمناها حربا عـوانا يشيب لها راس الصغير
فاما الملك في شرف وعز علي التاج في أعلى السرير
واما الموت بين ضبا العوالي فلست بخالد ابد الدهور

محاولة انقاذ صقلية — اخذ في صقلية اميرها المتغلب علي بن الحواس يجمع
الجموع ويحاول توحيد الكلمة ، لتاليف الناس ضد النرمان والدفاع النهائي عن حكم
المسلمين بتلك الجزيرة .

في هاتيك الاثناء قصد وفد من رجال الجزيرة مدينة المهديّة ، وقد علم كما
علمت فضل اميرها ونخوته وهمته العالية ، فاستنجدوا واستمد منه الاعانة على الفرنج
المتكالبين فما كان من الامير تميم بن المعز الا تلبية الدعوة ، واستنصار الناس
للجهاد ، فجهز بعض قطع الاسطول الذي كان بالمهديّة ، وحمله ثلة سالحة من بقايا
جندة ، وارسل بكل ذلك تحت قيادة والديه علي وايوب .

نزل علي بن تميم بقسم من الجند في مدينة بالرمة ، ونزل ايوب بالقسم الاخر

في مدينة جرجنتي فاكرم ابن الحواس وقادتهما، وتفاءل الناس خيرا بهذا المدد الكريم، واحسن ايوب وعلي السيرة، فمال اليهما الناس واحبوهما حبا عظيما واستعد الجميع للجهاد ضد الترماني .

لكن ابن الحواس خشي منهما على ملكه المتضعف، وخاف زوال سلطانه الآفل، ففرق الكلمة بعد اجتماعها، وشقت الشمل بعد التثامه، وجمع جماعة من جنوده صادم بهم نذالة وخيانة وصغاراً جند المنقذين علي وايوب ومات اللعين في معركة بضرية سهم .

اجتمع اكثر الناس يومئذ على ولاية ايوب، وروا فيه الرجل الصالح والقائد الذي يمكنه انقاذ الجزيرة من رجال الترماني الذين كانوا يتقدمون دائماً، فياكلون اطرافها، وقد التهموا منها الشيء الكثير بل اصبح اكثرها بين ايديهم واخذت نيران الحماص تنقد في النفوس يذكىها شعراء امجاد امثال عبد الجبار بن حمديس الذي انشد قصيدا خالدا انتشر يومئذ بين الناس فاستنهض همهم ودفع بهم الى مقاومة عنيفة هي مقاومة اليائس المستميت، قلما رأيت لها مثيلا في استفزاز الهمم الفاترة للدفاع عن الوطن المشرف على الهلاك وانتي لا اري غنى عن تسجيل هذا القصيد برمته لانه يمثل بنفسه صفحة من اغرب واروع صفحات الجهاد الاسلامي بصقلية . يقول ابن حمديس :

بنى الثغر لستم في الوغى من بني ابي	اذا لم اصل بالعرب منكم على العجم
دعوا الخوف اني خائف ان تدوسكم	دواء وانتم في الامانى مع الحلم
وكاس بام الموت بسعى مديرها	الى اهل كاس حثها بآبنة الكرم
فردوا وجوه الخيل نحو كريمة	مصرحة في الروم بالثكل واليتم
تسيل مع النقع المحارق بالضحي	على الشمس ما هالته ليلا على النجم
وصولوا ببيض في المعاج كانها	فروق بضرب الهام محمرة السجم

فلا عدمت من سلها من غمودها
 وقرع الحسام الرأس من كل كافر
 ووالله منكم كل ماض كعضبة
 يحدث بالاقدام نفسا كانها
 ويسطو بمحجوب الظباء اذا بدا
 له دخلة في الجسم تخرج نفسه
 وما يفتدى منه بلحم ولا دم
 ليوث اذا ما اقبل الموت فاغراً
 له عين ضرغام هصور فقلبه
 والله ارض ان عدتم هواءها
 وعزكم يفضى الى الذل والنوى
 وان بلاد الناس ليست ببلادكم
 أعن ارضكم تغنيكم ارض غيركم
 تقيد من القطر العزيز بموطن
 واياك عنه ان تجرب غربة
 ظهوراً فقد تخفى الجداول بالرجم
 احب الى سمى من النقر في اليم
 يسير الى الهيجاء متقد العزم
 تطير الى الحرب اشتياقا عن السلم
 جلا ما جلا بالصبح من ظلمة الظلم
 قيل خروج الحد منه على الجسم
 ولكن بما في العظم بالبري للعظم
 يردد في الاسماع جرجرة القرم
 بتصرف فعل الجهل منه على علم
 فاهواؤكم في الارض منشورة النظم
 من البين ترى الشمل منكم بما ترمي
 ولا جارها والحكم كالجار والحكم
 وكم خالة جداء لم تغن عن أم
 ومت عند ربع من ربوعك او رسم
 فلن يستخير العقل تجربة السم

الانجلاء النهائي — استمر الجهاد عنيفا قاسيا ، انما كان النرمان يتقدمون في

البلاد باستمرار ؛ واخذ الخناق يضيق على المسلمين هنالك ؛ ولقد صدق من قال :

يفنى على المرء في ايام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ففي هاتيك الايام ، والنرمان يتقدمون والمسلمون يتوالى خسرانهم ويستمر انهبانهم
 تألب جماعة من المسلمين هنالك ضد ايوب بن تميم ؛ وذاووه وقائلوه على مرأى
 ومسمع من النرمان فعلم هذا انه خسر الصفقة وعلم كبار القوم هنالك ان صقلية
 قد ضاعت على يد سفهاؤها وانذالها فقرر ايوب وقرر وجوه القوم معه الانسحاب

الى المهديّة ، فركبوا الاسطول ، حاملين معهم جميع من راى الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم واعيانهم وعامتهم وكان ذلك سنة ٤٦١ (١٠٧٣) وعندئذ انتهى امر المقاومة المنظمة او الشبيهة بالمنظمة وخلا الجو لرجال النرمان فاندفعوا يحتلون بقايا الجزيرة .

آخر مقاومة — لم يبق يومئذ بارض الجزيرة بيد المسلمين الا قلعة قصر يانة ومدينة جرجنتى فقصد همارجار الاول ملك النرمان ، ونصب عليهما الحصار وضيقه وتغاني اهل المدينتين في الدقاع ، واستبسلوا استبسالالو وقم من قبل مثله لبقيت صقلية احقابا عديدة اخرى بيد المسلمين ، ودام الحصار ثلاثة اعوام ، حتى اكل المحصورون الجيف ، فاستسلمت جرجنتى ونصب النرمان عليها لواء الصليب وبقيت قصر يانة ثابتة منيعة رغم الجوع والخصاصة والالام ؛ فسجلت في تاريخ المقاومة الاسلامية ضد النرمان ؛ ما سجلته من قبل في تاريخ المقاومة المسيحية ضد المسلمين وهكذا ابى الله الا ان يختم صفحة المسلمين بصقلية ، ختاماً كله عزة وشرف وفخار وما استسلمت قصر يانة تحت ضربات رجار العنيفة الا سنة ٤٨٤ (١٠٩٦) اي ٢٣ عاما بعد انسحاب المسلمين مع ابوبابن تميم ابن المعز وتملك يومئذ النرمان كامل جزيرة صقلية (١)

(١) لم يكف النرمان باحتلال صقلية والثبات بها ، بل تتبعوا المسلمين الى البلاد الافريقية ، واثنو افهم واصبحت اساطيل الملك رجار تلقي الرعب في قلوب سكان السواحل الاسلامية بافريقيا الشمالية ؛ فكانت نتيجة سقوط صقلية ان استولى النرمان على مدينة طرابلس الغرب سنة ٥٤٠ ؛ فاقتدى رجالها وسبى حرمها ، لان اهلها ثاروا بالنرمان واطردوهم ، اذا كانوا قد احتلوها قبل ذلك سنة ٥٢٠ . ثم احتل النرمان مدينة صفاقس سنة ٥٤٣ ، واحتلوا مدينة المهديّة ، واطردوا منها سلطانها الحسن بن علي بن يحيى سنة ٥٤٣ .

سيرة النرمان الاولى — كان النرمان لم يختلطوا بعد بالمسلمين في غير ميادين القتال فكانوا لم يزالوا على فطرتهم الوحشية الاروية الاولى ، ولم يغترفوا بعد من المدنية الاسلامية التي كانت وضاعة لامعة رغم الحروب ورغم الفتن والقلاقل والخلافات السياسية والحزبية والعنصرية .

فان رجار الاول ملك النرمان لما تم له الامر كاملا بارض الجزيرة اسكن الروم والنرمان مع المسلمين في سائر جهاتها ، فتم الاختلاط بينهم ؛ ولم يترك لاهلها من المسلمين حسما يرويه ابن الاثير : حماماً ولا دكاناً ولا طاحوناً ولا فرنّاً . فكانت ايام رجار الاول — نحو الثلاثين سنة — ايام تنكيل وزجر ، ايام اقتلاع كل جذور الحكم الاسلامي بالجزيرة وتمكين سلطان المسيحية فيها ، كانت دوراً من ادوار الفتح الحربى ، دام طيلة ايام رجار الاول ؛ الا انه يسجل لهذا الملك انه لم يعمد الى قتل المسلمين ولم يشردهم عن البلاد ، فكان ذلك سبباً في بقاء المدنية الاسلامية وازدهارها فيما بعد بصفة لامعة وضاعة ، وكان النرمان انفسهم اول مستفيد منها .



وفي سنة ٥٤٨ هـ احتلوا مدينة عنابة وجزيرة قرقنة .
واحتلوا سنة ٥٤٨ هـ كذلك جزيرة جربة وفتكوا باهلها فتكا ذريعاً .